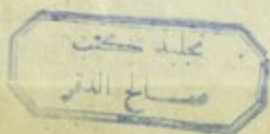


الحكيم

من ذكريات الفن والفضاء

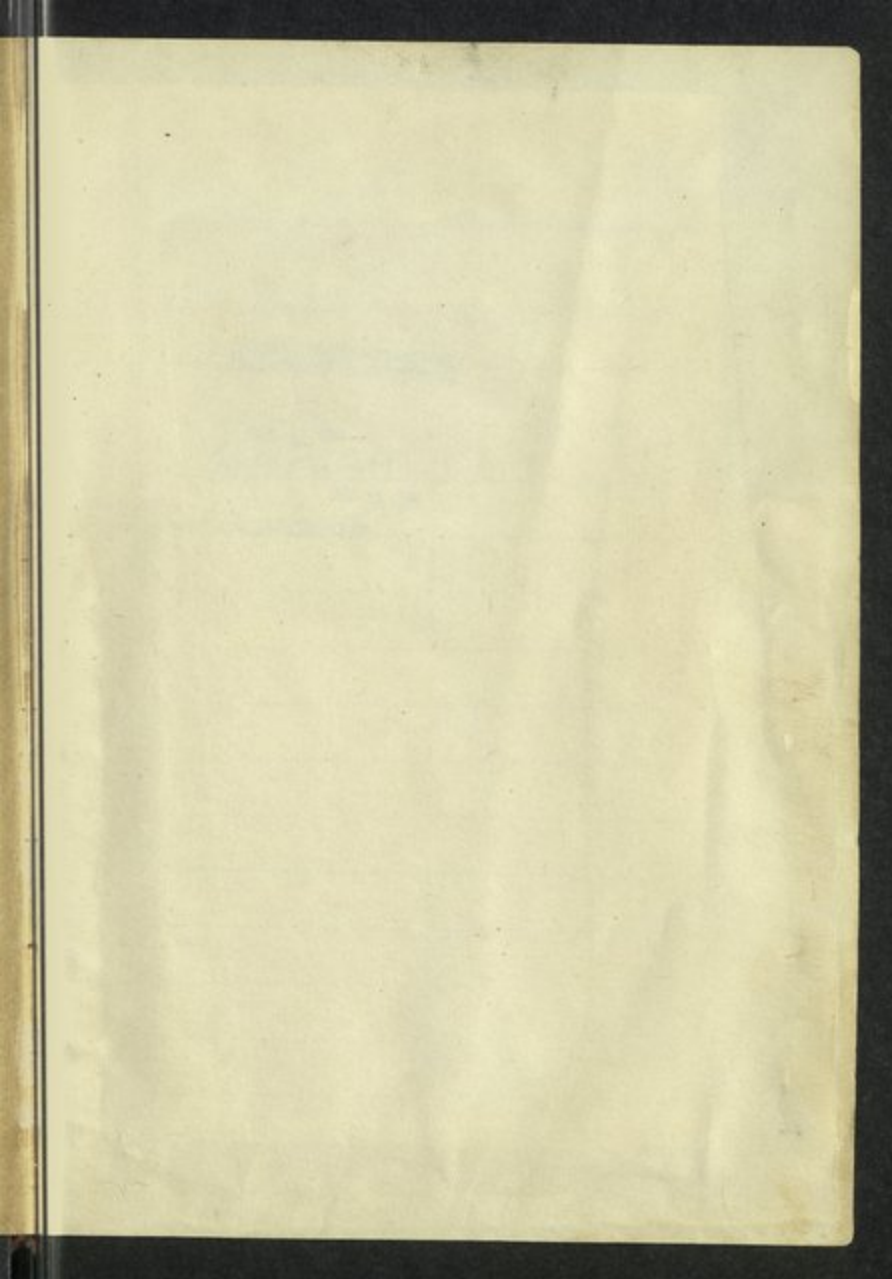




DATE DUE

6 NOV 1975

21 Feb 70



فمن ذكريات الفين والقضاء

892.78

Ha'438 mif

توفيق الحكيم



مِنْ ذِكْرِيَّاتِ الْفَنِّ وَالْقَضَاءِ



١٢٦

اقرا

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقراً ١٢٦ - أول يونيه ١٩٥٣



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بصر

عندما دون وكيل النائب العام . « يوميات نائب في الأرياف » لم يقصد نائباً بالذات ولا قرية بالذات . ولكنه صور نماذج بشرية واجتماعية مما قد ينطبق على كل بقعة في ريف مصر .

وهو في هذا الكتاب ينحو نحواً آخر . فهو يقصد نائباً معيناً وحياة بعينها لها ميولها ونوازعها وظروفها التي قد لا تتكرر كثيراً في عين المحيط ، وإن كان الإطار الذي تتحرك فيه هذه الذكريات هو نفس الإطار الاجتماعي الذي يعكس صورة من حياتنا في الأقاليم .

ع
ال
ال
ول
قا
ا
يق
وال
الت
ه
خ
وك
فك

الوزير جعفر

عندما كنت وكيلا لنيابة البندر بمدينة (. . .) من عواصم الأقاليم ، لم يكن شئ ينغص على حياتي غير رئيس النيابة . فقد كان رجلا ليس له في الدنيا غير هوايتين : تدخين الشيشة وإيذاء الغير . كان الشر للشر هو مذهبه الفنى فى الحياة ولا يعنى هنا تطبيق مذهبه فى مجال العمل الرسمى . فهذا أمر قد يكون له فى نظره ما يبرره . فالتسوة على المتهمين ، وتضييق الخناق عليهم فى كل وجه من أوجه دفاعهم ، والتلذذ بمآثمهم يقعون فى حبال أسلته ووسائل استجوابه المشروعة وغير المشروعة ، والذهاب أحيانا إلى حد تعذيبهم بالجوع والعطش طوال أيام التحقيق . . . كل ذلك داخل فى نطاق عمله الذى لا شأن لى به هنا . إنما أقصد بالشر معاملته لنا نحن معاونيه ومرؤوسيه وزملائه . خصوصا من كان يظنهم بغير سند أو ظهير من عظيم أو وزير . وكنت عنده من هؤلاء الذين لا يعتمدون على غير عملهم ، فكان يخفف أثقال العمل عن أصهار الكبراء من الزملاء ،

ليلقيها على كاهل ضعيف مثلى . ما من ليلة تركنى أنام فيها
بملء جفنى فى بيتى . فقد كان يرسل إلى خفراء الدرك يوقظوننى
لأضبط واقعة حريق تافهة ، هى فى أغلب الأحيان من
اختصاص معاون الإدارة . وما كان يطبق أن أسأله يوماً أسافر
فيه للراحة أو الاستجمام . مرة واحدة سمح لى فيها بليلة واحدة
أمضيها فى الإسكندرية . ولست أدرى كيف سمح بذلك . فقد
كان شارد الفكر وقتئذ من غير شك . سأله الأجازة وهو
يدخن الشيعة على قهوته المعتادة فى ميدان المديرية . فقال :

— الصبح تكون هنا .

فأكدت له أنى لا أحتاج إلى غير سواد الليل . فأنا مولع
بسماع الموسيقى السمفونية . وقد علمت أن جوقة موسيقية تعزف
برنامجاً حافلاً لبيتهوفن فى كازينوسان استغانو . . فتحرقت شوقاً
لسماعها . أنا المحروم منذ زمن طويل من متع الفن الرفيع الذى
أحبه وكادت تقضى عليه حياىى الشاقة بين جرائم الأرياف
وجهالة أكثر الزملاء . وسافرت وما كدت أستقر ساعة فى
الإسكندرية ، حتى أفاق الرئيس من إغفائه ودخان شيشته ،
وكبر عليه الأمر ، واستهول حصولى على يوم راحة ، فأطلق فى

أثرى إشارة تليفونية مستعجلة إلى المحافظة يدعوني فيها إلى العودة في نفس الليلة — ولو بأى قطار بضاعة متبهيء للسير — بحجة قيام مظاهرات في المدينة تستوجب مباشرة التحقيق . وعدت أدراجى دون أن أذهب لسماع الموسيقى . . فوصلت المدينة في أول الليل . . فلم أجد بالمدينة أثراً لمظاهرات ولا لحوادث . وجعلت أستفسر فى أقسام البوليس المختلفة فما ظفرت بغير جواب واحد : كل شىء هادئ فى المدينة ، ولم تتحرك نملة . ولم يحدث ما يستوجب حضورى . فأدركت أن غريزة الإيذاء هى وحدها التى تحركت فى نفس رئيس النيابة .

• • •

مرت الأيام هكذا كثيفة ثقيلة ، إلى أن جاء صيف شديد القیظ ، وجاءت معه فى تلك المدينة فرقة تمثيلية على رأسها ممثل قديم ، كنت أعرفه وأقلره يوم كانت لى مسرحيات تمثل فى جوقة عكاشة بالقاهرة . فرحت فرحاً شديداً بمجيء هذه الفرقة . فقد كانت نسما من أنسام الفن الجميل يربط صحراء هذه الحياة بالخافة . فقلت فى نفسى : لا بد من الذهاب الليلة لمشاهدة التمثيل ومقابلة صديقى الممثل القديم « عمر أفندى » كما كنا

ندعوه . وعدت إلى منزلى ، وكان فى طرف من أطراف المدينة ،
لأنغدى وأنا م قليلا استعداداً للسهر . لا فى المسرح وحده .
بل فيما بعد المسرح من تحقیقات وانتقالات وحوادث مما
سيخبره لى القدر القاسى بالتأمر مع رئيس النيابة الذى لا تنام
عينه عن أذية . لا سيما إذا عرف أن فى المدينة فرجة . وأنى
ذاهب أمتع نفسى .

تناولت غدائى . واستلقيت على فراشى ، وكان الجو حاراً ،
وكنت البارحة ساهراً فى تحقیق قضية ابتلانى بها بالطبع هادم
راحتى . فلم تمض دقيقة حتى كنت أغط فى نوم عميق .
ولكن نومي لم يطل فقد أفقت منه مذعوراً على صوت طرق
شديد على الباب . نهضت فوجدت ما هو منتظر : أحد سعاة
النيابة أرسله الرئيس ليدعونى إليه فوراً .. فسألت الساعى وأنا أتميز
من الغيظ :

— يطلبنى الآن ؟ فى هذه الساعة ؟ ما السبب ؟ ...

فقال الساعى وهو ينشف عرقه المتصبب بكمه :

— والله ما أعرف .

نظرت فى الساعة فوجدتها لم تتجاوز الثالثة بعد الظهر إلا

بقليل. ماذا يصنع هذا الرجل الآن؟ وفي مثل هذا الحر الشديد؟
 إنى أعرف أنه لا ينام بعد الظهر على الإطلاق. هو ولا ريب
 يدخن الشيشة على القهوة. ولكن الساعى أخبرنى أنه دخن
 شيشته وفرغ منها على خير، ثم ذهب إلى مكتبه فى دار النيابة
 وأيقظ السعاة وأحضر الكتبة من بيوتهم، وشرع يخلق لهم الأعمال
 الشاقة خلقاً منتهزاً فرصة القیظ المهلك. فكرت لحظة ملياً.
 ثم نظرت إلى الساعى المسكين وهو يبلع ريقه الناشف، بعد
 أن قطع الطريق الطويل الأجرد بين دار النيابة وبيتى، فى هذه
 الشمس المحرقة... ثم قلت له:

— الدنيا حر بره؟ ..

فأجاب على الفور:

— جهنم! ..

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت له:

— اقعد واسترح.. عندك هنا قلة ماء باردة! ..

فما تمالك الساعى أن صاح فرحاً:

— الله يعمر بيتك! ..

وتركته ودخلت إلى حجرتى، واستلقيت على فراشى كما

كنت ، وأغمضت عيني ، كأنما لم يحدث شيء ولم يأت أحد ،
 واستغرقت في نومي العميق . . . ومضى وقت قد يتجاوز نصف
 الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة أخرى . فاستيقظت فوجدت
 ساعياً آخر من سعاة النيابة قد أرسله الرئيس وقد استبطأ الساعي
 الأول . فابتدرت الساعي الثاني قائلاً :

— الدنيا حر في السكة ؟ .

فقال وهو يلهث :

— موت أحمر ! .

فأشرت إلى الدهليز الرطب وقلت :

— اقعد واسترح مع زميلك .. واشرب من القلة الباردة ! ..

وتركته يشكرني من أعماق قلبه .. وعدت إلى حجرتي

وفراشي ونومي . . . ومر وقت لا أدرى مداه .. قد يكون أيضاً

حوالي نصف الساعة ، وإذا الباب يطرق مرة ثالثة . وإذا بساع

ثالث يوفده رئيس النيابة ليستعلم عن الخبر .. فخرجت إليه

وبادرته بالسؤال المعهود :

كيف حال الطقس في الطريق ؟ .

فقال وهو يستند إلى الحائط من الإعياء ، وقد كان أكبر

من سابقه سنأ وأضعف صحة :

— هلاك والعياذ بالله ! ..

فأشرت إلى الدهليز وقلت :

— اقعـلوا كلـكم اسـترىـحوا . . . الدهليز رطب ، والقلة

باردة ! . . .

فجعل الساعى العجوز يستمطر الدعوات المباركات .
فتركته ودخلت حجرتى واستلقيت على فراشى . ولكنى لم أنم هذه
المرة . . بل جعلت أحصى عدد سعاة النيابة الموجودين الآن
تحت تصرف رئيس النيابة . . وأقول فى نفسى : إنهم ثلاثة
لا أكثر ، وقد أرسلهم كلهم . . وأنه لا شك سيفطن عما قليل
إلى أن من يرسله لا يعود . . فما النتيجة ؟ .. النتيجة أحد أمرين :
إما أنه يرسل إلى نقطة بوليس بأكملها دفعة واحدة . . ولن
أستطيع بالطبع إجلاسها فى الدهليز إلى جانب القلة . وإما أن
يأتى هو بنفسه ليكشف الخبر . . . والأمران ولا ريب محرجان
غاية الحرج . والأصلح أن أجد لنفسى مخرجاً بترك البيت فى
الحال حتى لا أواجه موقفاً دقيقاً يعرضنى لضرر أفدح . فهضمت
لساعى وارتديت ملابسى . ومررت بالسعاة فى الدهليز وقلت لهم :

— البيت بيتكم .. أبقوا في مكانكم هنا هادئين ناعمين ..
 ولا تعودوا لرئيس النيابة الآن فيعنفكم ويعاقبكم .. انتظروا حتى
 يتحسن الجو وانعموا بالساعة التي أنتم فيها .. وإذا جاءكم أحد
 أو سألكم سائل فقولوا إنكم هنا في انتظارى .. وإنكم لم تعجلوني
 في منزلى .. وليكن ما يكون .. وعلى رأى المثل الريفى : لقد
 « لغمطنا راس الحمار طين » ! ..

* * *

خرجت من منزلى وأنا أقول فى نفسى : ما دمت قد رفعت
 راية العصيان ضد رئيس النيابة فلا أفعل ما بدا لى مدة عشر
 ساعات على الأقل . فهو الآن لا يعرف لى مقراً . فأنا مختلف
 عنه . هارب من بيتى . ولم أترك عنواناً . وهو أمر لا يجب أن
 يحدث لعضو من أعضاء النيابة العمومية . فحركة عضو النيابة
 كحركة عضو الجسم لا بد أن يعرف الرأس خط سيرها فى كل
 حين . ماذا أفعل بوقى الآن ؟ . سأتنسم الحرية أولاً ... آه
 ما أجمل الحرية ! . ولو لبضع ساعات ! . حرية التنقل دون أن
 تترك لأحد عنوانك . حرية الحركة دون أن يكون فى أثرك ساع
 أو خفير . الآن أستطيع أن أعيش فناناً . . كما كنت فيما مضى

بضع ساعات . . . سأذهب إلى التمثيل في المساء . ولن يكون هناك رئيس النيابة بالتأكيد . فأنا أعرفه تمام المعرفة . إنه يحتقر التمثيل كل الاحتقار . وأذكر - يوم رآني أحقق في قضية كان أحد شهودها من الممثلين - أنه قال لى : « قبل أن تسمع شهادة هذا الممثل حرر له محضر تشرد » ، نعم إنه لم يذهب إلى التمثيل في حياته . ولن يذهب الليلة بل سيكتفى بالجلوس في قهوته يدخن شيشته ، ويفكر فيما ينزله بي من كوارث بعد هذه الفعلة . وماذا يهم ؟ . حسبي أنى سأعيش في جو الفن ساعات ، تنعش نفسى مدى أعوام . .

مشيت في الطرقات على غير هدى في انتظار المساء . وكانت المدينة تعج بأهل الريف القادمين من القرى المجاورة والبعيدة . فنحن في أسبوع مولد من أهم موالد المدينة . ولم أر من الحكمة أن أجلس في قهوة . فقد يعثر بي رسل رئيس النيابة الذين قد يطلقهم بحثاً عني في جميع قهاوى البلد . وخطر لى بادئ الأمر أن أذهب إلى مسرح البلدية حيث تمثل الفرقة هذا المساء ، فأسأل عن الممثل عمر أفندى . ولكنى أعرف عادات الممثلين . فهو الآن ولا شك نائم في فندقه ، استعداداً لسهر

الليل . فمن الخير ألا أزعجه . وليكن لقاءنا بعد انتهاء التمثيل .
 لم يبق أمامي إذن إلا التسكع في شوارع المدينة وساحة المولد ،
 بدون وجهة ولا مقصد . وهو ما لا يمكن أن يقع لوكيل نيابة في
 مدن الأقاليم إلا في غفلة من الزمن ومن رئيس نيابته . . .
 سرت في الطرق أنظر إلى الناس والأشياء نظرات بريئة صديقة ،
 لا تخفى اشتباهاً ولا ارتياباً . نظرات مواطن بين مواطنين .
 لا نظرات محقق بين متهمين . ولأول مرة منذ اشتغالي بعمل
 القضائي أشعر بإنسانيتي . أشعر بأني جزء من جماعة . لا فرد
 متسلط على جماعة . . .

ووقع نظري على الإعلانات الكبيرة تكسو الحيطان ،
 عن فرقة التمثيل وعن رواية « هرون الرشيد » التي تعرض الليلة .
 فرجعت بي الذاكرة أعواماً طويلة إلى الوراء . يوم كنت أسير
 في شوارع القاهرة أتأمل إعلانات جوقة عكاشة في مسرحيتي
 المسماة « العريس » . كان اسمي بالخط الصغير جداً في أسفل
 الإعلان يملأني زهواً ، ويخيل إليّ أن كل من في الشارع قد أعطى
 من قوة البصر ومن شدة الاهتمام ما يجعله يقرأ هذا الاسم الصغير .
 لعلّي أسنر من تلك الفكرة اليوم . ولكن ماذا يهم ؟ . . لقد

كنت في ذلك الوقت أومن بكل سداجة الشباب الأول أنى فنان .
وهذا الإيمان ليس بالشيء القليل . إنه على الأقل كان يمنحنا
شعوراً عجبياً لذيذاً ، قلما تستطيع الحياة أن تعيده إلينا على
هذا النحو ، في أية مرحلة أخرى من مراحل العمر .

وظفقت أستعرض في رأسي صوراً مما جرى أيام إخراج
مسرحيتي . لقد كان عمر أفندى هو المتولى أمر إخراجها .
ولن أنسى حذبه على هذه المسرحية وعنايته بكل شئونها . . .
كان من أبطالها الممثل القديم المرحوم « محمد بهجت » .
وكان عليه أن يرتدى بذلة فاخرة تليق بدور الثرى الذى يمثله .
فلما اقرب موعد التمثيل جاء لابساً خيراً ثيابه ، فإذا هى في
نظر المخرج لا تصلح للدور ثرى . . . فصاح فيه عمر أفندى :
« بذلتك هذه تلبسها لتقول بها أمام المساجد لله يا أسيادى ! »
فأجاب بطل الرواية : « هذه ملابسنا بصفتنا عظماء الممثلين ،
فإذا أردتم أن نكون عظماء من الأغنياء فألبسونا من عندكم ! »
وكان الجواب مقنعاً . وسعى عمر أفندى لدى مدير الفرقة زكى
عكاشة فأذن بشراء بذلة جديدة « جاهزة » من محل في العتبة
الخضراء ، على حساب الفرقة ، ليرتديها بطل الرواية . وظهر

« محمد بهجت » فى تلك الليلة على المسرح فى بدلة أنيقة فخمة
تليق بثرى من خيرة الأثرياء . وانتهى التمثيل . وجاء اليوم التالى
فإذا محمد بهجت يحتال بالبدلة الجديدة فى شوارع القاهرة ،
فضبطه مدير الفرقة صائحاً فيه : « ما هذا ؟ . اخلع حالاً
هذه البدلة . . . هذه بدلة الشغل تلبسها فقط ليلة الرواية فوق
خشبة المسرح ، ثم تسلمها بعد ذلك لتوضع فى المخزن مع
« الأكسسوار » . شأنها شأن ملابس عطيل وسيف قلب
الأسد وتاج ملك النمسا . . . »

• • •

جاء الليل وحان موعد السهرة . فذهبت إلى مسرح البلدية ،
فوجدت العساكر محيطة ببابه ، فأدركت أن مدير المديرية
سيشرف الحفلة . فانسالت إلى شباك التذاكر وحجزت لى مقعداً
فى القاعة وسط الصفوف . ودخلت وجلست . وجعلت أتصفح
وجوه النظارة . كان أغلب الجلوس فى المقاعد الخلفية من
القرويين الذين نزلوا المدينة لمناسبة المولد . فقد كثرت الزعابيط
والبلد . أما الصفوف الأمامية والوسطى فكانت تعج بالموظفين
والأعيان . ولم يلبث المدير أن دخل مقصورته فى صحبة وكيل

المديرية وحكمدار البوليس ، فدبت حركة وسمعت همهمة بين النظارة واتجهت الأبصار إلى مكان الحكام . ثم علا صوت الدقات الثلاث فوق خشبة المسرح ، وارتفع الستار عن رواية هرون الرشيد . وظهر عمر أفندى فى دور الوزير جعفر . فعرفت فيه الممثل العظيم الذى أنضجته السنون . وما كادت الحفلة تنهى حتى خرجت باحثاً عن باب الممثلين ، وقابلت صديق الممثل القديم . فكانت مفاجأة له وأى مفاجأة . وانتظرته حتى خلع ثياب الوزير ، وأزال المكياج ، وخرجنا معاً نجوب المدينة ونتذكر الماضى . . .

• • •

مشينا فى ساحة المولد بعد منتصف الليل . وقد اشترينا كعكاً وبيضاً وجعلنا نأكل وننحن نسير بغير هدف ، ونضحك من أعماق القلب . ولم نلتفت إلى شىء من متاجر المولد ولا ملاحيه . بل كان كل همننا الحديث فى الفن . . . قلت لعمر أفندى : احك لى عن ماضيك البعيد الذى لا أعرفه . . . قص على كيف تعلقت بفن التمثيل ؟ . . . اغمرنى فى جو الفن ! . حدثنى عن التمثيل فى أول عهدك به ؟ . . كيف كان حاله ؟ ..

فلفظ ضحكة مكتومة ساخرة نعرفها منه وقال : لو فتحت
هذا الموضوع فلن ننهي منه قبل الفجر .

فقلت له : فليكن ! .. وهل لدينا أهم من هذا ؟ ..

فقال لي : أليس لديك شغل غداً ؟ .. إنك لم تخبرني ما

عملك اليوم ؟ ..

والواقع أنني لم أكن قد أخبرته بعد بوظيفتي . فقلت له :

سأخبرك فيما بعد عما أعمل . أما الساعة فنحن للفن . . . أخبرني

كيف أحببت الفن ! ..

فتنهذ عمر أفندي طويلاً ثم قال : اسمع يا سيدي ! ..

أقول لك حالا . . . وقضم عنق كعكته الثانية ، وقال :

كان ذلك في عام ١٣٠٠ هجرية . وقد علق بذهني

التاريخ الهجري . لأن نشأتي الأولى كانت نشأة دينية . فقد

كان والدي رحمه الله من أئمة المساجد . فألحقني بمكتب خان

جعفر لأتعلم القراءة والكتابة وأحفظ القرآن الشريف ؛

فيكون لي من بعده عمله بالمسجد . وقد ألبسني منذ صغري

العمامة والحبة والقفطان وصيرونني شيخاً صغيراً اسمه « الشيخ عمر »

ولكن شاء الحظ السيئ أو الحسن ، لست أدري ، أن أسمع

وقتئذ من بعض أصدقائي عن شيء اسمه « التشخيص » ،
 وزينوا لي مشاهدته . فذهبت معهم إلى بولاق ، ورأينا رواية
 يقال لها « الملك بختنصر » يمثل فيها المرحوم محمود حبيب فبهرنا
 التمثيل والغناء والملابس المزركشة بالقصب . أشياء لم نشاهد لها
 مثيلا في حياتنا . ولم أدفع في كل ذلك غير قرش واحد ، أجر
 الدخول في « الترسو » . ورجعنا إلى منازلنا في حي سيدنا الحسين
 ونحن نقلد الممثلين طول الطريق . ووالينا حضور التمثيل كل
 ليلة لمدة شهرين والرواية لا تتغير . وأصبح التمثيل شغلنا الشاغل
 وأهأاني عن دروسي ، فكنت أتلقى الضرب والتعنيف من أهلي ،
 ولكن ما يكاد يأتي المساء حتى أنسى كل آلام الضرب وأهرع
 إلى مشاهدة التمثيل وسمعنا بعدئذ عن جوقة القرداحي التي
 كانت تمثل على مسرح الأوبرا الخديوية ، وكان من بين
 أعضائها الشيخ سلامه حجازي لكن وأسفاه ! . . . كان
 أجر الدخول أربعة قروش في « الترسو » . فلم أستطع مشاهدتها
 غير ليلة واحدة . كانت الرواية التي يعرضونها في تلك الليلة
 هي « عابدة » . لقد كنت أشاهدها وأنا كالمذهول . . . ما كل
 هذه المناظر والملابس والتمثيل والعسكر والأحباش . . . عدت

إلى البيت ولم أتم في ليلتي . لقد قضى الأمر وتمكن منى الداء
وصحت في فراشي من أعماق نفسي : لا بد أن أكون ممثلاً ! ..
فقلت لعمر أفندى وأنا أقضم كعكتي : وقد صرت بالفعل
ممثلاً قديراً ...

فقال : انتظر .. انتظر ... بعد أى جهاد ...

فقلت له : نعم أخبرني كيف بدأت ؟ ..

قال : في تلك الأيام ظهرت جمعيات تمثل في الأوبرا
الخليوية . فرجوت من صديقي الذي قادني إلى التشخيص أن
يحتال لنا حتى نشاهد عن قرب جمعية من هذه الجمعيات .
ففضي ثم عاد بعد يومين يبشرني بالحصول على إذن بحضور
« بروفة » إحدى المسرحيات . ولم يكد الليل يقبل حتى كنا في
صالة البروفة نرقب مشهودين نسيم أفندى غبريال المنبراوي
المخرج الفني العظيم المتخصص في ترتيب المواكب والزحف وانتقاء
الملابس والألوان ... كان في تلك الليلة يدرب ممثلين على
رواية « جنفايف » التي سيمثلونها بعد أسبوع بدار الأوبرا في
حفلة خيرية تحت رعاية الخديوي توفيق باشا بإشراف سعادة
باسيلي بك مفتش الأسماك المصرية . . . ولقد رأيت المخرج يعلم

شاباً دور خادم في الرواية ، مكرراً له الحملة مرات والشاب لا يفقه ، حتى ضجر منه المخرج ويثس ، وأنا أعلى من الغيظ ، حتى انتفجرت أخيراً صائحاً كالجنون : « أنا أمثل هذا الدور يا أفندي ! » فدهش الحاضرون لجرأتي وحماسي . ورحب المخرج بالفكرة . وأمر الشاب أن يعطيني الدور لأحفظه . فقلت له : « إني حفظت الدور من مجرد الإصغاء » . فعجب الجميع لذلك وطلبوا إلى أن أتقدم وأؤديه . فأديته في الحال كما كان يعلمه المخرج منذ لحظة ، وإذا بي أسمع تصفيق الاستحسان يدوي في المكان ، وصياح الحاضرين « برافو ! برافو ! » . إلا الشاب المسكين فقد أخذ يبكي ويقول محتجاً : « إزاي أتعب في حفظ الدور وتعطوه لواحد جاي النهارده ؟ » وجاءت ليلة التمثيل في الأوبرا ، فدخلتها وأنا كالمحموم أهذي من الفرح ، وعجبت لاتساع المسرح وكثرة الحجرات والمرايا والسلام والأبواب ، ولكني ما شعرت قط بخوف ولا هزة ولا رعشة ، ومثلت دوري ، فسمعت التصفيق ولم أر أحداً . حتى فطنت إلى أن الصالة غارقة في الظلام ، وأن المسرح وحده هو المضاء . فلا يستطيع من فوقه من الممثلين أن يميز وجود الجمهور

في القاعة . كان نجاحي تلك الليلة لا شك فيه ، على الرغم من صغر الدور . وفتح لي هذا النجاح الباب . لا أقول إلى المجد دفعة واحدة ، بل إلى قبولي في جمعيات التمثيل بغير عناء ، فما كاد يمضي أسبوع حتى تلقفتني جمعية تمثيلية تدعى «جمعية الاتحاد الوطني» كانت تتأهب لإخراج رواية «هند بنت الملك النعمان» تأليف الشيخ محمد بصره أحد مشايخ الأزهر الشريف . ووزعت الأدوار ، وأسند دور «هند» بنت الملك إلى الشيخ محمد حامد الطالب بالأزهر الشريف والكاتب في محل تجاري بالغورية ، ليقوم به تمثيلاً وغناء بصوته الرخيم . أما أنا فكان نصيبي دور الممثلة الثانية . واستمرت البروفة أربعة شهور كاملة ، تمكنا خلالها من إتقان أدوارنا . وكان كل فرد منا يحفظ ، لا دوره فقط ، بل كل أدوار الرواية . . كان كل شيء معداً أحسن إعداد . . وإذا الجمعية تفاجأ بحضور زائر أجنبي هو الموسيقار الكبير أدرينكو تورتي يعرض عليها الاشتراك معه في تنفيذ فكرة خطرت له . هي إخراج رواية عربية يضع هو موسيقاها ويغنيها أعضاء الجمعية . فقد بلغه أن من بينهم مغنين ذوي أصوات ملائكية . ثم يترجم الرواية إلى

الإيطالية . واشترط أن يظهر في الرواية المحمل الشريف وأن يظهر فيها بعض العادات المصرية . . . كانت صفقة رابحة للجمعية . إذ أبدى الرجل استعداده لبذل المال بسخاء ، وإخراج الرواية على مسرح الأوبرا في فصل الشتاء ليشاهدها السياح . وجاءت مسألة البحث عن المؤلف . فقلنا من يكون غير الشيخ محمد بصره مؤلفنا العظيم ، فقدمناه إلى الموسيقار الإيطالي فاتفق معه على الموضوع . ولم يمض بالفعل شهر حتى تم تأليف رواية « المحمل الشريف » . وهنا قامت في وجوهنا عقبة ، لقد أصر الموسيقي الإيطالي على أن تكون ألحان الرواية موافقة لموسيقاه الإيطالية التي وضعها . وكان هذا مستحيلا لما بين التلحين العربي والغربي من فروق . خصوصا في تأدية الآذان والإنشاد والأذكار والشعر العربي الرصين الذي نظمه المؤلف الأزهرى ! . . ولكن الرجل كان شديد العناد ، محمّا أن تكون الألحان كما وضعها هو بلا تغيير ولا تبديل . ولم ننجح في إقناعه رخصنا أن تغلت من أيدينا الصفقة . فأذعنا وسلمنا أمرنا لله ، وشرعنا نجرى التلريبات . وسعى الرجل من جهته حتى حصل على التصريح بالتمثيل على مسرح الأوبرا ، وبدأ ينفق المبالغ

الطائفة في إعداد الملابس والمناظر . وكان لا بد من ظهور ميدان المنشية والقلعة على المسرح ، فأعد كل هذا بالخشب لا بالقماش أو الورق ، واتفق مع ديوان الحرية على استعارة مائة من الجنود السوارى بخيولهم لتظهر على المسرح ، واستأجر عدداً عظيماً من الجمال والحمير وعربات الخنطور والكمبيل والكارو وتختروانات ومزمار وكل ما كان يرى في مهرجان المحمل ، حتى باعة الذرة والتمرس والقرداتية . ستقول لى كيف يمكن إظهار كل هذه الجموع على المسرح ؟ . . . المسألة بسيطة : خلف الأوبرا باب كبير مرتفع قليلاً عن الشارع يؤدي إلى المسرح ، فإذا وضع أمام هذا الباب عارضة من الخشب المتين ذات منحدرين على شكل سلم مزدوج ، أمكن لهذه الجموع أن تتجاذر المسرح وتخرج منه ، وتكرر هذه العملية عشرات المرات وأخيراً تم كل شيء . ولم يبق إلا أمر واحد تذكرناه : هو مواكب مشايخ الطرق بالأعلام والبايزات والأثواب المختلفة . فأشرنا على المسيو أدرينكو أن يذهب إلى السيد البكرى ويستأذنه في ذلك وبهذا تكمل كل مظاهر المحمل . فلم يبطئ وأسرع إليه وعاد بأذنه وهو يتهلل بشراً . ولم يبق بعد ذلك غير تحديد

الموعد وطبع التذاكر ، وانتظار أكياس الذهب تتدفق في جيوب الإيطالي . وإذا بخطاب خاص يصله من السراى ، فتوجه وهو يطير من الفرع لمقابلة الخديوى توفيق ، مهنيا النفس بالرعاية التى سيسبغها سموه على حفلاته . ولم تطل غيبته . فقد عاد إلينا بعد قليل . فرأينا ويا لهول ما رأينا . . . رأينا هذا الموسيقى الإيطالي الممتلىء فرحاً يعود إلينا شاحب الوجه مقصوم الظهر ، فقد صدر إليه الأمر العالى بعدم تمثيل الرواية لما فيها من تعريض بالدين . وضاعت آمال الرجل مع أمواله ، وتبددت أحلامنا وتشتت جمعيتنا . . .

ولكن حب الفن المتمكن فينا لا سبيل إلى القضاء عليه . لقد عدت بعدئذ إلى فرقة محمود حبيب التى كانت أول ما شاهدت من التمثيل ، فالتحقت بها وطففت معها فى رحلاتها بالأقاليم . وما كنا نستطيع السفر بالسكة الحديدية ، لكثرة النفقات ، فكنا نسافر فى المراكب . نشحن فيها شحناً مع صناديق الملابس وأخشاب المناظر والستائر ، وكنا ننام على ظهر المراكب ، وكلما رسونا على بلد طلعنا نمثل فيها ثم نعود إلى مركبتنا . . وكان للنيل فى ذلك الوقت قرصان كقرصان البحر ،

يغيرون على المراكب الراسية فيسلبون ما فيها . ففي ذات ليلة
ومركبنا راس على شاطئ مدينة في الصعيد ، هجم علينا
القرصان ، فتركنا المراكبية مذعورين وقفزوا إلى الشاطئ ، ولم
نلر نحن الممثلين ماذا نصنع أمام هؤلاء اللصوص المسلحين .
فطرات فكرة على المرحوم محمود حبيب أنقذتنا . فقد أمرنا في
الحال بارتداء ملابس الجنود التي يرتديها الكومبارس في إحدى
الروايات ، ووزع علينا بنادق المسرح الخشبية ، ووقفنا جميعاً
صفوفاً على ظهر المركب ، وقد اشعلنا « الكلوب » فما كاد
للصوص يروننا حتى ظنوا أن الحكومة أرسلت العساكر للقبض
عليهم ففروا هاربين . . مثل هذه الرحلات كانت تنهك قوانا
من التعب ، ولكنها كانت تعود علينا بالربح الوفير . أو على
الأصح على صاحب الفرقة . أما الفن فلم أشعر بمعناه الحقيقي
إلا عند ما التحقت بفرقة المرحوم الحداد . كان للحداد آراء في
الفن هي وحدها التي وجهت حياتي الفنية . لقد علمنا أشياء لم
تكن تخطر لنا على بال . كان يوصينا دائماً باتباع الطبيعة .
كان يقول لنا : « كونوا كما أنتم في الحياة » . حتى الصوت ما
كان يسمح لنا برفعه عن الحد الذي تجيزه الطبيعة . وكان

يجلسنا في المقاصير البعيدة أثناء إلقائه ، فإذا طلبنا إليه أن يرفع
صوته لنسمعه ، قال : « على الممثل أن يتجنب الخروج عن
الطبيعة وعلى الجمهور أن يحسن الإصغاء » . ولكن الفن الجديد
لا يجد دائماً غير العقبات التي تحول بينه وبين الإقبال .
فقد كان مسرح الحداد في حي ممتلىء بدور الرقص والغناء والطبل
والزمر . فكنا نبدأ التمثيل وسط الضجيج والصياح والنداء على
أبواب تلك الملاهي : « هنا الست نزهة المغنية » . « هنا الست
شفيقة القطية » . . . وجمهورنا يصبح بنا أن نرفع أصواتنا لسمع
والمرحوم الحداد مصر على الترام الطبيعة . حتى مل الجمهور ،
وزهد في الروايات الفنية التي كنا نعرضها ، فلم يمض قليل حتى
قل الإقبال وهبط الإيراد . . .

« وألف القرداحي وقتئذ فرقة جديدة ، فانضمت إليها ،
وعرض على دور « السجان » في رواية تسمى « الظلوم » .
فأجدت التمثيل ليلة عرض الرواية إلى حد جعل الزملاء جميعاً
يشاهدوني من بين الكواليس . وجاءني القرداحي يقول بلهجته
الشامية :

— منيح ! منيح ! لكن ما بتعلي صوتك . الترسو إلوحق

يسمع شو بتقول .

فأفهمته أن التمثيل المتقن الجيد هو التمثيل الطبيعي .
وأعدت عليه ما لقننى إياه الحداد قائلاً :

— يا أستاذ .. الواجب أن الصوت يكون حسب الطبيعة ...

فهرش القرداحى رأسه ونظر إلى ساخرأ وقال :

— ها الطبيعة بتقول بلاش الترسو ؟ !

ولم أجِدْ نفعاً من الاسترسال فى رأى فسكت . وجاءت
الليلة التالية ، واستعدوا لتمثيل رواية « عطيل » . فأقبل على
القرداحى يقول :

— الليلة بتشوف شو بيصير التمثيل بعطيل .. وبتعمل

زى .. وبتشوف الفرق بينى وبين أستاذك الحداد .

وكان المساء ، وشاهدت الفرق حقاً بين تمثيل القرداحى
وتمثيل أستاذى الحداد ...

ظهر القرداحى فدوى المكان بالتصفيق . ثم سمعته فسمعت

قصف المدافع يهز أركان المسرح ، وتردد صداه الجدران .

وهو يصول ويحول ولا يترك موضعاً على الخشبة إلا انتقل إليه ،

مشوحاً فى الهواء بذراعيه .. هذا كان فنه . أما معاملته فقد

كان من أبغض الأشياء إلى نفسه دفع أجور الممثلين . كان من زملائي في فرقته ممثل يطلقون عليه اسم « الشيخ كوارع » وهو رجل غريب الأطوار ، غضب على القرداحي يوماً لمأطلته في دفع مرتبه ، فترك المسرح طول النهار وخرج إلى الأسواق حاملاً قدرة عرق سوس ، وربط حول وسطه حزاماً من الصفيح تدلت منه الأكواب ، وصار يبيع للمارة كوب الشراب ومعه لحن ينشده من ألحان الروايات بربع قرش . أما من يدفع له في الكوب نصف قرش فكان يغنيه توشيحاً . . وصادفه القرداحي في السوق بهذه الحالة فصاح به :

— شو بتعمل يخرب بيتك ! .

فأجابه على الفور :

— هات فلوس والشغل يبق فقط جوه التياترو ! .

• • •

مضى عمر أفندي يحدثني عن بدايته الفنية وأنا مستغرق في الإصغاء ، لا أقاطعه ولا أراجعه ، وقد نسيت نفسي وما حولي . ما من شيء كان يخرجني من هذا الجو إلا شبح خفير أو عسكري بوليس يدنو منا . فقد كنت أجذب يد صاحبي بقوة

لأبتعد به عن الشيخ الخفيف الذى جاء يطلبنى ، فيما كنت أظن
وكانت دوريات البوليس كثيرة فى تلك الليلة من أجل المولد ،
فكثرت علامات انزعاجى . وكان كلما قطع صديقى الممثل
حديثه ليعرف ما بى ، طرحت عليه سؤالاً يشغله . قلت له أخيراً
— لن أنسى فضلك فى إخراج روايتى « العريس » .
فقال :

— الفضل فى نجاحها للمرحوم محمد بهجت . كان حقاً
مثلاً عظيماً ! .

وأطرق عمر أفندى لحظة . ثم رفع رأسه وأخذ يتذكر كيف
شاهد بداية محمد بهجت . حدث ذلك أيضاً فى جوقة القرداحى .
فقد جاء ذات يوم أحد أفرادها يقدم ممثلاً جديداً لم يعتل بعد
خشبة المسرح . فأسند إليه دور خادم فى رواية « أنيس الجليس »
دور صغير جداً ، كل ما يطلب من ممثله أن يدخل المسرح
ليقول جملة واحدة : « على الباب يا مولاي قاصد » . . هذا كان
دور محمد بهجت الأول . ولكنه ما كاد يتلقاه حتى ذهب إلى
شاطئ البحر ، ليقف أمامه الساعات ، مستلهما جمال الطبيعة :
متأملاً الأمواج فى هديرها والرياح فى صفيها ، ناصباً قامته

الطويلة ، نافخاً صدره الضخم ليلقى جملته الرهيبة : « بالباب يا مولاي قاصد » . . . هكذا كان يقضى الأيام حتى جاءت ليلة التمثيل . فاستعد أتم استعداد . وجعل يطيل النظر في المرأة وهو يلقي جملته الهائلة بصوت مجلجل خطير . وأفراد الجوقة من حوله ينظرون إليه ضاحكين في أكامهم ضحكات سخرية يخالطها إشفاق . وذنت اللحظة الكبرى . ودخل الممثل الناشئ المسرح ليلقى كلمته المأثورة « بالباب يا مولاي قاصد » . . وهو معتقد ولا شك أن الجمهور إذ يسمعها سينفق الليل في التصفيق ويستغنى عن بقية الرواية . . .

وصمت عمر أفندى قليلا . ثم أردف قائلا : هذا بالطبع شعور كل مبتدئ . وقد مررنا جميعاً بهذه المرحلة . . .

ولحت عيني حينئذ عسكري بوليس يتأمل من يده شيء أبيض ، وهو مقبل علينا . فما شككت في أنه يقصدني وأن ما بيده ورقة بيضاء ، لعلها إشارة تليفونية أو خطاب من رئيس النيابة . ففزعت وجذبت صاحبي من ذراعه جذبة كادت تخلع مفاصله ، فصاح بي :

— مالك ؟ . مالك ؟ ! .

— ابعد بنا عن البوليس ! . .

قلتها وأنا أجتاز به الطريق بعيداً عن العسكرى . وكان رجل البوليس قد اقترب من أحد مصابيح الغاز ، فنظرت إلى الشيء الأبيض في يده فإذا هي رؤوس فجل بيضاء تتدلى من حزمة يحملها ولا ريب إلى عياله . فعاد الاطمئنان إلى نفسى . ولكن الشكوك والريب كانت قد خامرت صديقى الممثل . فوقف ونظر إلى وجهى الذى يغمره ظلام الليل ، كأنما يريد أن يستشف سرى . قال :

— إنت خايف من البوليس ؟ . . قل لى السبب !

فقلت له :

— بكره أقول لك . خليتنا الساعة للفن !

فلم يزد هذا الجواب المتهرب إلا ارتياباً وقلقاً . فتسمر فى الأرض ولعن الفن وسيرته . وأبى أن يتحرك قبل أن يعرف سر خوفى من البوليس . فإن لم أصارحه بالحقيقة فهو فى حل من تركى والخلاص بجلده قبل فوات الأوان . فهو قد يكون فناناً بوهيمياً . ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام من طريدى الحكومة ولا من المجرمين أو المتسترين على الإجرام .

فقلت له ضاحكاً :

— الإجمام ! ؛ .

فقال في خوف :

— طبعاً لا تؤاخذنى ! . . حد يهرب من البوليس إلا من

يكون قتل قتيل أو سرق سرقة ! ؛ .

فقلت له بغير غضب :

— قصدك إيه يا عمر أفندى ؟ .

فقال في الحال :

— قصدى أنك تقول لى الحق . بينى وبينك، شغلتنك ؟ ..

فقلت وأنا أخفى ضحكى :

— شغلتنى ؟ . أقول لك الحق . . بينى وبينك شغلتنى لها

علاقة بالإجمام والمجرمين . . .

فصاح الرجل مذعوراً :

— يا حفيظ يا رب ! . .

فما تماكنت نفسى من الضحك . فابتعد عنى خطوتين في

حذر وهو يقول مودعاً :

— سلام عليكم ! . .

ثم أطلق ساقيه للريح . فأسرعت خلفه أصبح به :

— انتظر . . انتظر يا عمر أفندى . . انتظر . .

فأشار إلى بيده علامة الابتعاد وقال دون أن يقف :

— أنت غرضك تسبب لي داهية في آخر الليل . وأنا غريب

عن البلد . . .

فصحت به راجياً :

— كلمة واحدة . . . اسمع لي . . . كلمة واحدة . . .

أحكى لك كل شيء . . .

فاستدار نحوى وهو يجرد في السير وقال :

— أنا لا أعرف حضرتك . . . ولا سبق لي معرفه بحضرتك . . .

، وجرى في الشارع وأنا أركض خلفه لألحق به ، حتى كاد

منظرنا يستلفت الأنظار ويوقعنا في مأزق نحن عنها في غنى .

وبالفعل . لم تمض لحظة حتى طلعت علينا داورية من أحد

الشوارع الفرعية ، على رأسها جاويش . ظهرت فجأة أمام عمر

أفندى المنطلق كالسهم . فما شعر المسكين إلا وهو بين يدي

الجاويش ، يقبض عليه ويصيح به :

— بتجرى كده ليه الساعة دى ! . .

فسمعت عمر أفندى يقول فى صوت المولود :

— آدى اللى أنا كنت حاسب حسابه ! . .

ووقفت أنا بالطبع فى مكانى أترقب ما يحدث . فرأيت

الجاويش يقذف بعمر أفندى وسط الداورية قائلاً لرجاله :

— احجزوه ؛ . .

وهنا استدار صديقى القديم ونظر خلفه يبحث عنى بعينه

ويصيح :

— ما أعرفوش ! . . والله ما أعرفه . . .

فقال الجاويش الفطن سائلاً :

— مين هو ؟ . .

وأخذ يرسل نظراته إلى الجهة التى يتطلع إليها سجينه .

فأبصرنى واقفاً فى مكانى لا أدرى ما أضنع . فأشار إلى بخشونة

وصرامة منادياً :

— تعال هنا يا جدد أنت ! . .

فلم أجد بداً من الطاعة . فتقدمت نحوه ، ولكن بخطى

ثابتة . فما كاد يتبين وجهى ، حتى عرفنى ، فقد رآنى ولا ريب

كثيراً فى جلسات المحاكم ، وعند مصاحبته للمتهمين أمام

الاستجواب فى قضايا التلبس . وإذا هو فجأة يدق الأرض
بنعليه ، ويرفع يده بالتحية العسكرية ، ويقول متلعثماً :
— لا مؤاخذه يا سعادة البك ! ..

ولا أدرى كيف أصف ما ارتسم على وجه عمر أفندى وقتئذ
من علامات العجب والدهشة والذهول . كانت المفاجأة سريعة
وبغير تمهيد فلم يبد عليه أنه فهم شيئاً مما رأى . إلى أن سمعنى
أقول بلهجة الأمر :

— أنت حاجز الأفندى ده ليه يا شاويش ؟

فقال الجاويش فى الحال :

— أمر سعادتك يا أفندم ! ..

فأمرت قائلاً :

— سيبه ! ..

فأطلق سراحه . ووقف على رأس الداورية سائلاً بأدب :

— خدمة ثانية يا أفندم ؟ .

فقلت وأنا أشير بيدى علامة الانصراف :

— لا .. خلاص .

فدق الجاويش الأرض بنعليه مرة أخرى ، وأدى التحية

العسكرية ، وأمر الداورية بالسير . فسارت في طريقها وتركتنا في مكاننا . وأنا أشيعها بنظري حتى ابتعدت . بينما لبث عمر أفندي جامداً في موضعه كأنه تمثال . فدنوت منه ودعوته إلى استئناف السير ، وأنا أنظر إلى وجهه وأقول :

— مالك ؟ ..

فأجاب وكأنه يصحو من حلم :

— مالي إيه ؟ .. أنا مش فاهم حاجة .. فهمنى ..

حضرتك تبقى إيه في البلد ! ..

وعندئذ أخبرته بكل شيء عن عملي ووظيفتي وهرابي من رئيس النيابة ، فضحك من فكرة ارتياحه في أمري . واطمأن قلبه . ومضينا في حديثنا الأول عن الفن . غير إنى لاحظت أنه بدأ يحادثني بلهجة يخالطها شيء من التحفظ والتأدب . لهجة بعيدة عن ذلك التبسط الذي كان يرسله على السجية منذ قليل . فأدركت أني لم أعد في نظره الفنان القديم الذي كان يخالطه بغير كلفة قبل دقائق . . . ودقت عندئذ إحدى ساعات الحائط في حانوت قريب دقتين ، فعلمنا أننا الآن في تمام الثانية صباحاً . فقال لي :

— أظن الوقت تأخر على سعادتك . . .

ورنت كلمة « سعادتك » فى أذنى رنيناً غريباً ، ملأ قلبى أسفاً ووحشة . لو أنها كانت على الأقل مبطنة بالسخرية لارتاحت نفسى . ولكنها كانت صادرة عن شعور جدى بأن حاجزاً بيننا قد وضع . فأردت أن ألفت نظره إلى الأمر فضحكت لكلمته ثم تجاوزت التلميح إلى التصريح . موضعاً له ما قام بنفسى . لكنه فيما يظهر لم يقتنع ، ولم يرد أن يصدق أن وكيل النيابة الذى يأمر البوليس بالحجز والإفراج ، وتحية الدورية بالتحية العسكرية يمكن أن يحتفظ فى أعماق نفسه بقلب فنان . وأردت أن أصف له مهنتى فى جوهرها الحقيقى الذى أراها عليه ، فقلت له إنها ليست مجرد قبض وحبس وتهم وأحكام . بل هى مسرح وتمثيل وجمهور . ففتح فمه عجباً :

— وضع لى من فضلك !

— أوضح لك . . .

وجعلت أصف له جلسة المحكمة التى أحضرها مع القاضى . إنها قاعة متسعة بها مقاعد للجمهور ، شأنها فى ذلك شأن قاعات التمثيل . ثم هنالك المنصة التى تجلس عليها هيئة المحكمة

ويتطلع إليها بأبصارهم جمهور الحاضرين . إنها تشبه خشبة المسرح التي تتطلع إليها عيون المشاهدين . ثم هنالك الروايات التي تعرض . . . إنها في جلسات المحاكم لا تقل غرابة ومتعة عنها في قاعات التمثيل . وروايات المسارح يقدمها المؤلفون . وروايات المحاكم يقدمها النائبون والوكلاء العموميون . أى أنى في عملي القضائي أقوم على وجه التقريب بما كنت أقوم به في عملي المسرحي ؟ بل إنك إذا فتحت ملف قضية من القضايا وجدت فيه حراراً من عمل وكيل النيابة يسمى في لغة القضاء محضر تحقيق ، قد لا يقل أحياناً في الروعة عن الحوار الموجود في ملف رواية مسرحية . كل ما هنالك من فرق هو أننا في الجلسة نعرض رواياتنا في النهار وبدون ماكياج . ويدخل الممثلون إلى القاعة من الحياة مباشرة . في حين أن رواية المسرح تحتاج إلى وسطاء من الفنانين ينوبون عن الأشخاص الحقيقيين . ومع ذلك فلدينا المحامي الذي ينوب أحياناً عن الشخص الحقيقي فيتصرف بفنه البارع في إظهار الحقائق الدفينة تصرف الممثل القدير في إبراز خفي المشاعر . كل شيء إذن في قاعة المحكمة قريب الشبه إلى كل شيء في قاعة التمثيل . في القاعتين الحياة تجري

مجردة أو مزوقة أمام جمهور من النظارة . . .

* * *

حان وقت افتراقنا . فذهب هو إلى فندقه الذى ينزله مع أفراد فرقته . وعدت أنا إلى منزلى . وقد اتفقنا على اللقاء فى مساء اليوم التالى . دخلت بيتى فوجدت كل شىء هادئاً . فقلت هو الهدوء الذى يسبق العاصفة . ولكنى لم أفكر فى غير حاضرى وكان التعب قد نال منى ، فنمت نوماً عميقاً حتى طلع الصباح فهضمت وذهبت إلى مكتبى فى نيابة البندر ، وأخذت أصرف شئون عملى المعتاد كأن لم يحدث شىء . ولكن الصمت المضروب حولى بدأ يثير قلقى . ما بالى لا أسمع عن رئيس النيابة خبراً . إنه لا يتركنى هكذا حتى الساعة إلا وهو ينوى أن يفاجئنى بمكرهه . وكدنا نقرب من الظهر ، وتصدع رأبى من كثرة تحقيق قضايا التلبس العاجلة التى قذفها علينا حوادث المولد . فتوقفت قليلاً عن مواصلة العمل . وطالبت فنجاناً من القهوة ، وأخذت اتصفح جرائد اليوم . كان فى الصحف أخبار التعديل الوزارى . وطالعت اسم الوزير الذى يعيننا . وهو وزير الحقانية أى « العدل » . فلم أعرف عنه شيئاً . هو اسم جديد لعضو فى أحد

الأحزاب . يدخل الوزارة لأول مرة . فقلت في نفسي : لعل رئيس النيابة قد شغل عنى اليوم بأخبار الوزارة . وتركت الصحف وتأهبت لاستئناف عملي . وإذا الساعى يدخل معلناً زيارة صديقي عمر أفندى . فأذنت له في الحال . فدخل متردداً معتذراً . واخرج من جيبه ورقتين كبيرتين . . حفظهما في يده لحظة وهو يقول :

— عند سعادتك حق . . . بين التمثيل والقضاء شيء من القربة . . .

وجلس حيث دعوته إلى الجلوس . وجعل يوضح لى سبب زيارته التى على غير موعد ولا انتظار . ممهداً لذلك بموقف مماثل حدث له فى الصعيد فيما مضى من سالف الزمن ، يوم كان فى جوقه المرحوم محمود حبيب . قال إنه كان يومئذ جالساً على باب المسرح نهاراً قبل التمثيل . وإذا برجلين من الفلاحين يقبلان وفى يد أحدهما « عريضة » يريدان أن يقدمهاها إلى الملك هرون الرشيد أو إلى الملك النعمان . فقد سمعا من الناس فى الأسواق ، ومن يقرأ لهم الإعلانات ، أن الملوك تحضر فى ذلك المكان . وهما يتوسلان أن ترفع العريضة إلى أحدهما الملوك ليرفع عنهما الظلم . . .

وقدم إلى عمر أفندي الورقتين وهو يقول :

— نفس الموضوع حصل الصبح . . .

— واستطرد يقول إن الزمن قد تغير بعض التغيير . فالشكوى

اليوم ليست مقدمة كما قدمت في الماضي إلى هرون الرشيد أو الوزير جعفر مباشرة . فالعقلية قد تنورت قليلاً . بل هي مقدمة إلى الحكومة . فقد ذكر القرويون فيما ذكروه عند ما حضروا في الصباح إلى المسرح بالعريضتين ، أنهم حضروا التمثيل البارحة ولاحظوا وجود الحكومة كلها من مدير وحكماء وعسكر وخبراء ، فأدركوا أن التمثيل شيء مهم عند ذوى الشأن . وأن لأفراد الفرقة من الممثلين خاطراً واعتباراً عند المدير والحكماء . فجاءوا يطلبون الوساطة لدى الحكام .

ونشرت العريضتين في يدي . فوجدتهما مملوءتين بالشكاوى ضد العمدة والصراف لظلمهما الأهالي . فتناولت قلمي وأشرت عليهما بالتحويل إلى جهة الاختصاص لأجراء التحقيق اللازم ثم التفت إلى صديقي الممثل باسماء :

— النيابة نفذت طلبات الوزير جعفر ! . . .

فرفع عمر أفندي يديه إلى رأسه بالشكر على الطريقة التي

تتبع في قصور الملوك في روايات التمثيل . وكنت قد طلبت له قهوة . فحضرت وأخذ يرشف في الفنجان على مهل . . . وإذا باب الحجرة المغلق يفتح فجأة مسبقاً بضجة وصوت صدمة كأن قدماً قد ركلته . وإذا رئيس النيابة يدخل الحجرة هاجماً كأنه قذيفة مدفع . فما إن أبصرت أوداجه المنتفخة وعينيه المتطاير منهُما الشر ، وطريقته العنيفة في الدخول ، وسخنته المخيفة المنذرة بالويل والثبور ، حتى أيقنت بحلول الطامة الكبرى . . . وأسعفتني حلاوة الروح ، فضبطت أعصابي وأسعرت أحول مجرى الموقف كمن يحول أنظار ثور هائج إلى هدف آخر ، فأقبلت على الرئيس مشيراً إلى عمر أفندي قلت :

— اسمح لي أقدم لسعادتك الوزير . . .

وهممت أن أضيف كلمة « جعفر » . ولكن رئيس النيابة لم يتركني أتم الكلام . فقد كان أسرع من ملح البصر في الانحناء ومد اليد باحترام إلى صديقي الممثل القديم ، قائلاً :

— نهني وزارة الحقانية بإسنادها إليك يا معالي الوزير . . .

فعمدت الدهشة لساني لحظة . ولكن سرعان ما انكشفت لي حقيقة الموقف . فتجلدت . واكتفيت بمراقبة ما يجري وما

سيجري . فرأيت عمر أفندى قد انحنى هو الآخر مسلماً . وهو لم يدرك قطعاً من الأمر شيئاً . وظن المقصود من « معالى الوزير » أنه الوزير جعفر فى رواية هرون الرشيد . فكانت انحناءته طويلة مسرحية لا يمكن أن تصدر عن وزير « الحقاينة » . ولو كان رئيس النيابة حاضر الذهن وقتئذ ، ولم يكن غارقاً فى جو التعديل الوزارى الذى يملأ البلد والصحف فى تلك الأيام ، لفطن الأمر . ولكنه أخذ ولا شك طريقة الانحناء المعركة الغربية على أنها مغالاة فى التواضع . وخطر لى عندئذ أن أستغل الموقف للخروج من ورطتى فقلت مباحياً :

— الوزير صديق قديم . . .

فنظر لى رئيس النيابة القاسى كالحجر نظرة تودد واستعطاف . فتشجعت وقلت له :

— أرجوك يا سعادة الرئيس تقول لصديق الوزير أنت

راضى عنى وإلا لأ ؟ . .

فالتفت لى عمر أفندى وقال بلهجة التحمس وهو يشير

إلى بيده المرتجفة من التأثر :

— أؤكد لمعالى الوزير أنه أحسن وكيل نيابة فى المديرية

في الكفاءة والنشاط والآداب والطاعة والأخلاق والذكاء . . .
وكيل نيابة مثالي . . نموذجي يا معالي الوزير . . .

واسترحت لهذا الاعتراف الذي انتزعته من فم رئيس النيابة
انتزاعاً . ولكن الشك أخذ يخالجي في قيمته . وبدأت أتصور
ما سيحدث عند ما تنكشف حقيقة التزوير . فوجدت السلامة
في الحرب قبل فوات الأوان . فأسرعت أقول لرئيس النيابة :

— سعادتك ملاحظ أني مرهق في العمل ومحتاج لراحة . .
فيه مانع تسمح لي بأجازة أسبوعين ابتداء من اليوم .

فأجاب في الحال :

— ما فيش مانع أبداً . تقدر تقوم بالأجازة من دلوقت .
وأنا أنتدب وكيل نيابة المركز يحل محلك .

— متشكر . أنا مسافر بعد ساعة . . .

فوافق رئيس النيابة بعلامة مؤدبة من رأسه . واتجه إلى عمر
أفندي قائلاً :

— ومعالي الوزير شرف البلد إمتي ؟ . . .

فأجاب الممثل من فوره :

— اشتغلنا من ليلة امبارح .

ورأيت كأن رئيس النيابة يريد أن يستوضح . فأسرعت
أقول مفسراً دون توضيح يكشف المستور :
— كان وزير ليلة إمبراح . . .

وفهم رئيس النيابة من ذلك أن المراسيم وقعت البارحة . وفهم
عمر أفندى أنه كان حقاً وزيراً في رواية البارحة . وظل
الأمر بذلك مستوراً . إلى أن قال عمر أفندى بسداجة :

— طبعاً سعادتك شرفت ليلة إمبراح مع سعادة المدير . . .
فلم يفهم رئيس النيابة شيئاً من المقصود . وخشيت أنا أن
تسفر الاستيضاحات من الجانبين عن كشف الموقف . فدنوت
من رئيس النيابة وهمست في أذنه بأن الوزير مدعو إلى الغداء
عندي دعوة خاصة مقصورة عليه بناء على طلبه ، وأن من
اللياقة أن يأذن لنا الآن بالانصراف . فقال في الحال :
— تفضلوا . . . تفضلوا . . . أنا تحت أمركم . . .

• • •

وهكذا خرجنا من المأزق . ولم أكد أغادر دار النيابة مع
عمر أفندى حتى تركته وذهبت إلى منزلي تواء فأعددت حقائبي
وسافرت إلى الإسكندرية في أجازة أسبوعين . وأنا أتوقع في كل

لحظة ظهور الحقيقة . فلا بد أن يعرف رئيس النيابة من الصحف أن وزير الحقانية لم يذهب إلى ذلك البندر من الأقاليم بل لا بد له أن يرى صورة للوزير الحقيقي تنشر في إحدى الجرائد ، يدرك منها مدى المهزلة . ولكن القدر شاء أن يجنبني المصيبة في حينها ، وأن ينقذني هذه المرة أيضاً من رئيس النيابة كما سبق أن أنقذني . فإذا بالصحف تنشر في اليوم التالي لسفري حركة تنقلات بين رؤساء النيابة ، وجدتها تشمل رئيس نيابتي بالنقل إلى مديرية أخرى بعيدة . . . فتنفست الصعداء وأيقنت أنني نجوت . . .

ومرت بعد ذلك الأعوام الطويلة ، وفرقت الأيام بيني وبين رجال القضاء ، بتركي هذا السلك إلى أعمال أخرى . . فلم أقابل رئيس النيابة القديم إلا بعد أن أحيل إلى المعاش وقد وصل إلى آخر مراحل القضاء في محكمة النقض . قابلته في مقهى بالقاهرة وهو شيخ مهتم ، ففرح بلاقائي أيما فرح ، وقال وهو يستعيد ذكرى الماضي ويتنهد :

— فإكر معالى الوزير إياه ؟ ! .

فقلت له باسمياً وأنا أغمز بعيني :

— الوزير جعفر ؟ ! .

فقال ضاحكاً عن طقم أسنانه الصناعية :

— أيوه يا سيدى . . . وزير هرون الرشيد . . . ما عرفتش

أنا شخصيته إلا بعد أنت ما زغت ! . .

سقطوا في الإخراج !

عندما انتدبت للقيام بأعمال النيابة العمومية في مركز
(.....) من الأقاليم .. قالوا لى :

— حذار من مأمور هذا المركز ... إذا سلم عليك فبادر
إلى عد أصابعك بعد السلام ، لئلا يكون قد اختلس منها أصبعاً ،
فى غفلة منك ! ..

فقلت بنبرة الواثق :

— اطمئنوا ! ...

وركبت القطار إلى مقر وظيفتى .. وإذا المأمور ينتظرنى
على المحطة مع جميع موظفى المركز وجهائه وأعيانه .. ويستقبلنى
استقبال الحكام أصحاب الأبهة والمقام ..

ومنذ تلك اللحظة والمأمور يحيطنى بكل عناية وإكرام ..
فما من يوم يمضى ، حتى يقيم لى مأدبة يحشد لى فيها الأعيان
والعمد ، ويدبح لى فيها الديوك ، ويسمىها حفلة تعارف ،
واجتماعاً مصلحياً ، للتوفيق بين الأسر المتنافرة ، والنصح بمراعاة

الهدوء التام ، والمحافظة على الأمن العام ! ..

وأخيراً انفردت بالمأمور ، وهمست في أذنه :

— قل لى يا حضرة المأمور ! ما هى الحكاية بالضبط ؟ .

— أى حكاية ؟ ..

— حكاية الولائم هذه .. والديوك ..

— هذا أقل ما يجب علينا .. ابتهاجاً بقدم سعادتك ! ..

— مفهوم ! .. ولكن المسألة طالت و .. زادت ! ..

— أبداً .. أنت كلك خير وبركة .. ولا تحلو لنا لقمة

من غير وجودك ! ..

— هذه اللقمة ديك رومى .. هل مرتبك أو مرتبى يسمحان

لنا بهذا الترف ؟ .

— نحن فى الأرياف يا بيبك .. الخير هنا كثير .. الخير

كثير ! ..

— مفهوم .. مفهوم .. هذه الديوك تشتري أو .. تهدي

إليك ؟ ..

ولمح حضرة المأمور فى كلامى ما يشبه الاستجواب .

وأحس بغريزته أو لباقته أو مرانه وخبرته أنى لست الرجل الذى

فهم وسكت واستمرأ .. فبادرنى قائلاً :

— سمعت عنى شيئاً ؟ ..

— لم أسمع غير الثناء العاطر !

قلتها بكل رباطة جأش .. فتنفس المأمور الصعداء ..

وقال :

— عيبي أنى رجل « بحبوح » ! ما فى يدى لغيرى ! ..

فقلت له باسمياً بلهجة ذات مغزى :

— وما فى يد غيرك ؟ ..

فرفع كفه بحركة تمثيلية وضاح :

— حاشا لله .. !

فقلت له :

— ولكن مسألة الديوك ..

فاقترب منى بكرسيه ، وقال فى أذنى :

— ماذا سمعت عنها ؟ .. بالله قل لى ... من الذى

أخبرك ؟ . الولد سعداوى الخفير ؟ ..

— لا أعرف سعداوى ، ولم أسمع من خفير .. ولكنى

شممت بأنفى لها رائحة ! ..

فنهض المأمور صائحاً :

— شممت له رائحة ؟ ! .. مؤكداً هو الكلب سعداوى
الذى أخبرك ولا أحد غيره ! .. ولكن ما ذنبى .. إذا كان فى
كل يوم يموت ديك رومى ! ..
ولم أفهم مراده وحملت فيه بعينى :
— ماذا تقول ؟ ..

ولم أكد أتم كلمتى ، حتى ظهر الخفير ، وضرب الأرض
بجذائه الضخم ، ورفع يمينه إلى لبدته الطويلة ذات الرقم النحاسى
وحيا حضرة المأمور .. ومد يسراه ، فإذا بها ديك رومى نافق
بالموت ، ورائحته تنته تؤذى الأنوف ... وأسرع الخفير يقول
بلهجة مسرحية كأنها ملقنة محفوظة :

— وجدناه « فطسان » بين الديوك يا أفندم ! والبلوك أمين
عمل المخضر اللازم ... ولم ينتظر الخفير من المأمور كلاماً ..
وضرب الأرض بجذائه وانصرف بالديك الميت المنتين على عجل ..
ولكن المأمور نهض وعاجله بصفحة على قفاه قائلاً له بصوت
خافت :

— مظاهرة ! .. روح واخفيه فى مخزن التبغ يا لوح ! ..

وعاد المأمور .. فوجدنى أضع يدى على بطنى ، كمن
يحس التواء .. وأقول له :

— كنت تطعمنا من هذا ...

فقال بصوت صادق هذه المرة :

— حاشا لله ! ...

ثم أقبل على يقول كمن يفضى باعتراف ، قضت ضرورة
الموقف أن يكشف عنه ، حتى لا يقع فى وهمى ما هو شر
من الحقيقة كما قال ! .. حقيقة الأمر أنه كلف رسمياً بجمع
الديوك الرومية لحساب جيش الاحتلال البريطانى ، لمناسبة
عيد الكريسماس .. فجمع بنشاطه وهمته من القرى التابعة له
مئات من هذه الديوك .. مات منها هذا الديك المنتن منذ أيام
عديدة ... وعمل له المحضر اللازم .. ولكنه لم يلق ولم يدفن ..
بل احتفظ به فى المخزن .. يخرج الخفير سعداوى كل صباح ،
ليعمل له محضر إثبات « وفاة » على اعتبار أنه ديك جديد قد
مات ... بينما الديك الجديد حى يرزق ويذبح فى منزل حضرة
المأمور ! ..

سمعت ذلك ... فقلت :

— إذن هذا الديك المنّين . . . فقطاعنى المأمور قائلا

بابتسام :

— ممثل ليس إلا . . . كل وظيفته الآن أن يقوم بتمثيل

دور الميت فى كل صباح . . .

فقلت فى شىء من الجدل :

— وهل هذا يجوز ؟ . . . إنه ينتحل شخصية ديك

حتى ! . . .

فقال المأمور :

— وهل من الجائز أن جمعاً من الديوك يعد بالثبات لا

« يفطس » منه ديك واحد على الأقل كل يوم ! . . هل

الديوك خير من الآدميين ؟ . فلنراجع نسبة الوفيات إلى تعداد

القطر المصرى . . . إنى راض بالإحصاءات الرسمية ! . .

فقلت له :

— ولكن الواقع أنه لم يمت عندك فى كل يوم ديك . . .

أليس هذا هو الواقع ؟ . .

فقال :

— ولكن المعقول أنه يجب أن يموت من هذا العدد فى كل

يوم ديك .. أليس هذا هو المعقول ؟ ! .

فقلت :

— لا يهم الآن المعقول ... ولكن ..

فقال صائحاً :

— سبحان الله ! .. عندما تتصرف جهة الإدارة مرة

واحدة في حياتها طبقاً للمعقول ... يصبح المعقول لا يهم ! ..

فضحكت ... وقلت له :

— هذه على كل حال مسألة لا تدخل حتى الآن في

اختصاص عملي القضائي ... كل ما يجب أن أعمل هو أن

أعفى نفسي من حضور هذه الولائم ...

وانقطعت منذ تلك اللحظة عن رؤية المأمور ... إلا

لأمور تتعلق بالعمل .. وحاول هو أن يقنعني بأنه ، فيما عدا

مسألة الديوك المنطقية في نظره ، رجل سليم الطوية ، طاهر

الذمة ، مستقيم السلوك .. ولم أجد حتى ذلك الوقت ما يلقي

على تصرفاته غباراً .. فقد كان مثال النشاط والهمة والذكاء .

وكاد يكتسب كل ثقتي ... إلى أن وقعت حادثة في

ليلة من الليالى . . . فقد جاءتنى إشارة تليفونية بأن ابن أحد الأعيان قتل بعبار نارى . . والقاتل مجهول . . فسألت عن المأمور . . فقيل لى إنه خف إلى مكان الحادثة . . فقلت فى نفسى : « مأمور نشيط » . . وقمت فى أثره إلى مكان الواقعة . . فوجدته قد قام بالواجب . . وأكثر من الواجب . . فقد قبض على القاتل . . وضبط البندقية المستعملة فى الجريمة . . وأحضر شهود الإثبات . . ولم يبق أمامى إلا أن أسجل فى محضرى قضية ناجحة ، لا شبهة فيها ولا شك . . هذا الفتى القليل ابن العين الثرى ، كان فى « الجرن » مع شيخ البلد وشيخ الخمر وعامل تليفون العمدة ، وهم شهود الإثبات ، يتدافون حول « ركية نار » وإذا المتهم يطلق العيار على الحبنى عليه ، ويرديه قتيلا . . . وقد رأى الشهود القاتل رؤية العين . . . وهم شهود رسميون لا خلاف فى أقوالهم ولا تناقض ، كان كل منهم يدلى بشهادته أمامى بكل فصاحة وطلاقة . . لا تلغى ولا تردد . . فلما سألتهم : — وكيف أبصرتم القاتل والليلة مظلمة فى هذا الوقت من آخر الشهر العربى ؟ . . .

أجابوا كلهم . . لم يشذ منهم واحد !

— أبصرناه على « ركية » النار ! . قلت في نفسي : غداً
 في مثل وقت الحادثة من الليل أجرى عمل تجربة . . . ولكن
 ما من شيء يدعوني إلى تكذيب شيخ البلد وشيخ الحفر وعامل
 التليفون . . . قضية ناجحة . . فيها شهود رؤية . . وأقوال مقبولة
 معقولة . . وأمرت بحبس المتهم . . وعدت إلى دارى ، وأنا أثنى
 على حمة المأمور . . .

وفي اليوم التالى جاء محام معروف (أصبح فيما بعد وزيراً
 خطيراً) وأخبرنى أنه حاضر عن المتهم . . وأنه يشك في تصرفات
 المأمور . . فإن الصلة بينه وبين العين الثرى والد القتل ، معروفة
 عند العالمين ببواطن الأمور ، أنها قائمة على المنفعة ، وأن هذا
 العين أراد اتهام غريم له . . كان يريد من قبل الإيقاع به . .
 هو هذا المتهم . . وأن شهود الإثبات لم يبصروا شيئاً ولم يروا أحداً ،
 وأن الإشارة التليفونية الأولى قيل فيها إن « القاتل مجهول » . .
 شيخ البلد وشيخ الحفر وعامل التليفون ليسوا سوى شهود
 مصطنعين يمثلون دوراً أعد لهم إعداداً . . .
 فقلت للمحامى :

— اطمئن . . سأقوم الليلة بعمل تجربة . . سأضع الشهود

حول « ركية النار » .. ونأتى بأنفار مختلفين على أبعاد مختلفة
لنحكم هل يبصرونهم ويعرفون صفاتهم ! ..

فانصرف الحامى منتظراً النتيجة .. وجاء الليل .. فسألت
عن المأمور ، فقالوا لى إنه سبقنى « بالبوكسفورد » إلى مكان
الحادث .. ليعد اللازم للتجربة ... فقممت أنا وكاتب
التحقيق فى سيارة النيابة .. ولم نكد نقرب من القرية التى وقع
الحادث فى زمامها ، حتى شاهدنا ألسنة اللهب وتجب الدخان
تتصاعد منها إلى عنان السماء ! .. فقلت مرتاعاً :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. لقد شب حريق فى القرية !
وأمرنا السائق أن يسرع بنا إليها لنعرف الخبر .. فانطلق
بنا إلى أن وصلنا إلى الجرن ... وهناك رأينا العجب ...
أحطاب مكدسة بعضها فوق بعض ... طولها وارتفاعها مما
يقاس بالمتر ... قد أشعلت فيها النيران ... والشهود من حولها
يمدون أيديهم نحوها كأنهم يتدفون .. وشواظ اللهب قد أسال
العرق من جباههم ، ودخان الخطب قد سود وجوههم ...
ووهج الضوء يكشف الجرن فى الظلام الليل على نحو يحسده
عليه ميدان الأوبرا فى القاهرة ! ..

قلت للمأمور الواقف بين شهوده يمسح عرقه بمنديله :

— ما هذا ؟ ..

فقال وهو يسعل من الدخان سعالاً شديداً ..

— ركية النار ! ..

فصحت :

— أتسمى كل هذا « ركية نار » للتدفئة ؟ .. أهذا معقول

يا حضرة المأمور ؟ .. أنت صاحب التصرفات المعقولة .. هل

يرضيك أن تسمى هذا الحريق « ركية » ؟ ! ..

ونحيته في الحال جانباً .. . وأمرتهم بإطفاء هذه النيران ..

وجئت بفلاح آنست فيه البراءة ، وتوسمت فيه الذمة .. فطلبت

إليه أن يقيم « ركية » نار للتدفئة كما يفعلون عادة في هذه

الناحية .. فأقامها بالحجم المعقول .. فعارض الشهود .. فزدت

في حجمها قليلاً .. . فعارضوا أيضاً .. . فزدت .. . حتى

جعلتها أضخم مما ينبغي قليلاً .. واستحضرت أنفاراً من أهل

القرية على مسافات مختلفة .. . فما استطاع شاهد واحد أن

يميز شخصاً منهم ، أو يتبين صفة من صفاته الظاهرة .. فهم

في ضوء الركية لا يمكن أن يبصروا من في الظلام .. بل هو

الذى يستطيع أن يراهم ولا يرونه. ذلك هو الوضع الطبيعي كما اتضح
لنا، مادام الجرن لم يسطع بضوء الحريق الذى أرادوا أن يشعلوه...
عند ذاك أيقنت أن شهود الإثبات لم يروا شيئاً حقاً ولم
يبصروا أحداً.. وأنهم ليسوا أكثر من ممثلين يؤدون أدواراً..
فعدت إلى مقر عملى وأطلقت سراح المتهم.. وقلت للمأمور هامساً:
— جعلت من الديك الرومى ممثلاً.. قلنا معقول!..
ولكن ألا تعترف أن تمثيل شيخ البلد وأعوانه لم يكن بالمعقول!..
فأبدى التنصل.. وأظهر البراءة.. وألقى عليهم التبعة،
ونفى عن نفسه التدخل.. وقال ضاحكاً:
— مسألة «الركبة» فضحتهم!.. نجحوا فى التمثيل،
وسقطوا فى الإخراج!..

كان الأجدر به أن يقول «سقطنا»... ولكنه أراد أن
يخرج من كل هذا كما تخرج الشعرة من العجين.. ولم أر
فائدة من إحراجهم، فتظاهرت بتصديقه.. غير أنى أصبحت
شديد الارتياب فى كل تصرفاته.. إلى أن انتهت مدة انتدابى
فى مركزه.. وركبت قطار العودة.. فإذا به يودعنى كما
استقبلنى.. بحشد الأعيان والموظفين على المحطة.. وسلم على

سلاماً حاراً . . ولم يترك يدي حتى تحرك القطار . . فما كدت
أخلو إلى نفسي في عربة القطار ، حتى تذكرت قول من
حذرنى منه قبل أن أراه .

— إذا سلم عليك فبادر إلى عد أصابعك بعد السلام ،
لئلا يكون قد خطف منها إصبعاً دون أن تدري ! . .
ففتحت كفي في الحال . . لأرى هل أنا عائد من هذا
المركز بأصابعي العشر ؟ ! .

شاعرة الهجاء

كنت في كرسى النيابة العمومية ذات صباح متشجاً بوسامى
الأحمر الأخضر ، وكان أمامى « الرول » ذلك الدفتر الطويل
الذى تدون فيه أرقام القضايا وأسماء المتهمين والشهود ، وملخص
وصف التهمة ومواد القانون إلخ . . . وبين أصابعى ذلك القلم
الذى يجب أن أدون به الحكم الذى ينطق به القاضى فى كل
قضية . ولكن الحق يقال : ما من مرة دونت فيها الأحكام
كاملة فى ذلك « الرول » فقد كان سكرتير المحكمة « الله يستره »
هو الذى يسد هذه الحانة بقلمه تلطفاً منه وكرماً لثقتة بأنه من
غير المعقول أن أكون قد تتبعت كل القضايا بيقظة وانتباه .
على أن من المبالغة أن نزعم أنى كنت أشرد عن كل ما يجرى
حولى طوال الوقت . هنالك قضايا وتفاصيل ودقائق كنت أوجه
إليها كل التفانى . . لعلى كنت أعرف بالغريزة ما ينفعنى
كروائى مما لا نفع لى فيه . إنى ما كنت أطيق ثرثرة المحامين . .
فالقضية التى فيها مرافعة طويلة معناها عندى « غياب ذهن »

طويل . . وربما حوار قصير بين شخصيتين تافهتين في نظر المحكمة يثير في نفسى كل تأمل وتفكير . ولقد سمعت في ذلك اليوم الذى أتحدث عنه هذه المناقشة بين القاضى وخفير نظامى تعدت عليه امرأة بالفاظ جارحة :

القاضى - ماذا حصل يا خفير ؟

الخفير - أنا واقف فى دركى جهة نقطة الملموسات (يقصد المومسات) ضربت بعينى لقيت الحرمة المتهمه خارجة من بيتها حاطه . . .

القاضى - حاطه إيه ؟

الخفير - حاطه من غير مؤاخذه أحمر وأبيض ومتخططة وفى رجليها الخلاخيل ولايسة شبشب زحافى ، وواقفة بين الجددعان فى وسط الشارع فى حالة هزار وضحك وصهايل بشكل مخالف للحشمة والكمال . . .

القاضى - وكيف تعدت عليك المتهمه أثناء تأدية وظيفتك ؟

الخفير - قلت لها عيب يا ملموسة . ادخلى بيتك . فما كان منها إلا أنها زغرت لى من فوق لتحت وتقصعت وقالت : « احرص يا خفير يا مصدى قطع لسانك .

دا أنا لما أنفض شبشبى الصبح يتزل منه عشرين
غفير زيك !! ..

فظهر الاستنكار على وجه القاضى . وظهر الإعجاب على
وجهى . إن هذه المرأة فى نظره قد فاهت بأقصى ألفاظ التعدى ،
وهى فى نظرى قد جاءت بأخصب صور الخيال الفنى . فما
أظن هنالك أبلغ من هذه الصورة فى تحقير خفير . لو استطاع
ذهن هذه المرأة أن يبدع صوراً أخرى فى التجميل والثناء كما
فعلت فى التقييح والهجاء لكانت شاعرة ، ونظرت إليها وهى
فى قفص الاتهام فإذا هى هادئة ساكنة ويدها على خدها ،
ترمقنا بنظرات فاترة .. وعلى شفيتها ابتسامة لعلها ساخرة ..
إنها معترفة . ولماذا ينكر شاعر قصيدة هجائه ؟ لقد روحت
عن نفسها بما قالت وكفى .. ماذا يهم الثمن بعد ذلك ؟ ..

ترى ماذا فى حياة هذه الساقطة ؟ لا أقصد حياتها الظاهرة
التي يعرفها الخفير ورجال الضبط وزوارها وزبائنها ، إنما أقصد
تلك الحياة الخفية فى قرارة نفسها ، هنالك ولا شك أشياء كثيرة
رأتها وأحسستها ولا تكلف نفسها التعبير عنها ، ولو أنها أرادت
أو استطاعت لجاءت بأعاجيب ، ذلك أنها ستصف الأشياء

بطريقتها هي ولغتها هي .. ويا لها من طريقة ولغة ! .. لو استطعت أن أجلس إليها وأتلقى عنها ؟ ليس أكذب من الروائي الذي يفكر لأشخاصه بعقله هو ويتكلم عنهم بلغته هو ، هذه المرأة مادة قيمة لي ولكن .. أنسيت أني أمثل الاتهام ؟ نحن في الحياة قطبان لا يلتقيان . وإن التقينا فحول القفص . لأنني أنا العقاب وهي الجريمة ، أنا السيف وهي الذبيحة .. لا يمكن أن نلتقي للتفاهم أبداً .. لا تفاهم إلا إذا طرحت عني وسامى الذي يكبلني وانطلقت حراً أغترف من أعماق تلك الشخصيات كما يغترف المثال من الطين الذي يصنع به فناً ..

ومضت بي الخواطر في هذا السبيل .. وغمرتنى فلم أدر حتى بالزمن الذي مرّ بي .. ولم أفطن إلى ما جرى حولي ولا إلى ما نظرت المحكمة من قضايا .. ولم أنتبه إلا على صوت باب حجرة المداولة يفتح فجأة وقد ظهر الحاجب في حركة اهتمام سريعة وهو يحمل كرسيّاً وضعه إلى جوارى وهمس في أذني بقوة :
— سعادة اليك مفتش عموم النيابة ! ..

وقبل أن أفيق إلى نفسي دخل المفتش بسرعة وجلس إلى جوارى وحياتي بصوت خافت . ثم أراد أن يعرف رأيي في القضية

المعروضة ، فاصفر وجهي . أى قضية ؟ والتفت أنظر إلى ما يدور حولى فى الجلسة بعيون زائغة شاردة ، فأبصرت أحد المحامين الفطاحل يرغى ويزبد ويضرب بقبضته فى الهواء ويصيح :

— هذا كلام فارغ . النيابة أخطأت فى تكييف وصف التهمة . لو أن النيابة فهمت الوقائع المنسوبة إلى موكلى على حقيقتها لما قدم إليكم يا حضرة القاضى هذا المتهم مكبلا بكل هذه النصوص .

فقال مفتش النيابة يسألنى عن المواد المطبقة على هذا المتهم ، فلم أدر ماذا أقول ولا ماذا أصنع . . وأنا لا أعرف فى أى قضية يتكلمون فى الجلسة ويتناقشون . . وشاء سوء حظى أن يكون هذا المحامى سفیه اللسان فأمعن فى الصياح قائلا :

— هل هذه نصوص تطبق فى حالة موكلى ؟ هذا تخبط من النيابة هذه فوضى . . هذا سمك لبن تمر هندى . . فاهتز مفتش النيابة فى كرسيه وانتفخت أوداجه . . وهمس فى أذنى بشدة . . .

— النيابة أهينت . . قم دافع عن كرامة النيابة !
فقلت مداراة للمسألة :

— كرامة النيابة في الحفظ والصون . .

— كيف ذلك ؟ ألا ترى النيابة متهمة بالخطأ والخلط

والفوضى ؟ المحامى يقول النيابة ستمك لبن تمر هندي . .

فقلت له : أنا لم أسمع غير كلمة تمر هندي فقط .

فصاح صبيحة كاد يسمعها القاضى والحضور :

— لا . . لا . . لا . . هذه إهانة موجهة إلى النيابة . . .

يجب على الجالس فى كرسيها أن ينهض لدفعها . . قم . . قم . .

وسجل احتجاجك . . وبسط وجهة نظرك فى تطبيق نصوص

القانون . .

فقلت فى نفسى : لو أنى كنت أعرف فقط نوع القضية؟

ولكن الموقف ساء من كل ناحية . فكان الدفاع بعيداً كل

البعد عن ذكر ما يشم منه رائحة التهمة ، مكتفياً بالتهويل

والتهويل والطعن فى تصرفات النيابة والبوليس ، وكلما أمعن فى

ذلك هاج مفتش النيابة وماج وإنهال على كمى يكاد يمزقه

وهو يطلب منى القيام والكلام . . وأنا متشبه بمقعدى مصمم

على القعود والسكوت . وأصبح منظرنا لمن يفهم موقفنا ييكى

ويضحك وقد فطن القاضى إلى الأمر كله وأدرك الورطة التى

أنا فيها ، وهو يعرف عاداتي جيداً ويحترم شرودي دائماً .
فأبتسم ابتسامة فهمتها . فتشجعت وقمت أقول بقوة وحماسة :

— النيابة تحتج على الألفاظ التي صدرت من حضرة المحامي .

فقال القاضي : — المحكمة ترجو النيابة أن تفسح صدرها

وتسمح للدفاع بكامل حريته . وهو لم يقصد قط في لحظة أن
يمس كرامة النيابة العمومية من قريب أو بعيد .

وصادق المحامي على قول المحكمة بعبارة مجاملة . وجلست

في مقعدي أنتفخ الصعداء وأقول لمفتش النيابة :

— هأنذا قد رفعت لكم رأس النيابة ! . .

ومرت الأيام وانتهى حضرة المفتش إلى أرقى المناصب القضائية

في البلاد ، فكنا كلما تقابلنا وتذكرنا الماضي ضحك لموقفي
ذاك طويلاً . . ولكنه ظل برغم ذلك من المعتقدين بأنني كنت

مع كل عيوني من خيرة رجال النيابة . . عافاه الله ! . .

مصيفون في السلاسل

لقد قلتها يوماً : ما من عمل في العالم كله أشق من عمل نائب في الأرياف في فصل الصيف ، فالجرائم تزداد في الصيف ، لأن الغرائز تتيقظ بكل حرارتها في الصيف . والناموس والهابوش والبق والذباب والقمل والبراغيث كلها تكثر في الصيف ، وتزحف على حيطان النياحة العمومية . . . فإذا ذكرت كلمة البحر لمنكود مثلي يعمل في أقاصي الريف في هذه الظروف فكأنك قد ذكرت النسيم لمذنب يتلظى في أعماق الجحيم ! . . . وكنا ننتظر الانتدابات الصيفية كما ينتظر البشر مفاجآت القدر . . . فإذا جاء انتدابنا في مدينة أو بلدة على بعد ساعتين من بحر أو نهر سجدنا لله بالشكر . . .

لن أنسى فرحتي يوم فتحت المظروف الأصفر الرسمي ، فوجدت أنني قد انتدبت طول شهر يوليو في « فارسكور » لم أتمالك أن صحت : « لقد صيفت ! »

ولبثت أعمل في هذا الريف ليل نهار أنجز المتراكم
من القضايا ، وأقوم بعمل اثنين لأن الوكيل المساعد قام
بالأجازة . . . ونفسي لا تتسع للفرح الذي يملؤها ويفيض من
جوانبها . . . حتى جاء شهر يوليو وأذنت ساعة السفر إلى
فارسكور . . فحملت حقيقتي وركبت القطار إليها منشرح
الصدر شامخ الأنف كأني سائح ذاهب إلى ربوع سويسرا . . .
كل ذلك لأن فارسكور قرب دمياط . . ودمياط قرب
رأس البر ! . ووقف القطار بعد سفر طويل كاد ينفد معه
صبري في وسط الخلاء ، وصاح عامل القطار ينهني :
فارسكور ! .

فنظرت من النافذة فلم أجد مدينة . . ولكنني وجدت
« كشك » من الخشب يسمى « محطة » ومن حوله فضاء
وبرارى . . . ولا شيء غير ذلك .
— متأكد أن دى فارسكور ! .

— طبعاً . . وما مصلحتي أني أغش حضرتك ! .
قالها « الكمسارى » . . فترلت بحقيقتي ، وأنا لا أدري
ماذا أنا صانع في هذه البقاع . . لا بيت ولا فندق ولا حتى

بلدة . . . ولم أفكر طويلا فقد أنقذنى صوت خلفى يصيح :

— تفضل يا سعادة النائب !

فالتفت ، وإذا هو حاجب النيابة فى انتظارى ، أقبل
نحوى وتناول من يدى الحقيقة . . فابتدرته قائلا :

— الحقنى ! . . أنا فىن ؟ . . احنا فىن ؟ . .

— فى فارسكور يا بيه . .

— فىن هى فارسكور ؟ . . الكشك ده ! . .

— لا مؤاخذه يا بيه ! . . هنا المحطة . . لكن البلد هناك

على مدى الشوف ، فى البر الثانى . . لازم نمشى أو نركب
ركوبة . . وبعد كده نعبّر النيل فى قارب . . وبعدين نمشى
مسافة . .

— وليه كده المحطة مخاصمة البلد ؟

— مصلحة السكة الحديد ؛ .

— ما علينا . . . وصلنى بأى طريقة .

ووصلنا إلى استراحة النيابة فى بلدة فارسكور . . ونظرت
إلى الحجرة التى سأقيم فيها ، وإلى الفراش الذى سأنام عليه . .
وصحت . . . مستحيل ! .

وخاطبت وأنا في ثورة من الغضب النائب العام بالتليفون ،
قلت له :

— إني أراهن على أن المكان المخصص لمبقي الذي يسمونه
« استراحة » ، للتعمية أو للسخرية ، لو أنه عرض على كلب
ضال في حارات فارسكور لعافه وفضل الهواء الطلق ! ..
فهل يحرم على مثلي حتى الهرب إلى الهواء الطلق !
فقال النائب العام في نبرة ضاحكة :

— وكيل نيابة البلد ينام في الهواء الطلق كالمتشردين ! ..
— وما العمل ؟ .

— تصرف على مسئوليتك الخاصة .. لك أن تبيت في
دمياط أو رأس البر .. أنت حر على شرط أن تقوم بواجبات
أعمالك بكل دقة .. وعلى مسئوليتك أنت وحدك ! ..
— متشكراً يا باشا ! ..

قلت لها فرحاً .. فهذا تصريح مستتر بأن أقيم في المكان
المريح .. إذن لماذا لا أذهب فوراً إلى رأس البر .. وأحضر
إلى فارسكور كل صباح .. ولنقل كل يومين مرة .. حسب
العمل .. ونظام الجلسة .

وقمت في الحال بحقيقتي إلى فندق « كورتيل » برأس
البر ، وحجزت حجرة . . وبلغت المركز والنيابة وكل جهات
الإدارة في المصيف بمكاني ورقم حجرتي للاتصال بي عند
اللزوم . . وفتحت رثتي لهواء البحر . واضطجعت قليلا
وإذا تعب الشهور والأعوام يتجمع في لحظة واحدة . . .
وإذا أنا طريح نوم لم أصبح منه إلا في ضحى اليوم التالي .
وجعلت أذهب يوماً إلى فارسكور ، وأبقى يوماً في رأس البر .
ثم انكشيت حصّة فارسكور إلى ثلاثة أيام في الأسبوع . .
ثم انتهى بي الأمر أن صرت لا أذهب إلى فارسكور إلا يوم
الجلسة فقط ، أي مرة واحدة . كل أسبوع . . وقد فرح
بذلك موظفو النيابة والمحكمة . . فقد كثر ترددهم على رأس البر
بحجة عرض وارد القضايا على « حضرتي » . . ولم تبق عقبة في
سبيل متعتي بالمصيف وإقامتي الكاملة في المصيف إلا قضايا
التلبس والمحاييس . . أي القضايا التي لا بد لي فيها من استجواب
المقبوض عليهم من المتهمين ، وانتهى بي الأمر أيضاً أن صرت
أستدعى هؤلاء إلى رأس البر لاستجوابهم . . فيأتون من السجن
فرحين مع حراسهم يستنشقون هواء البحر . . وسرت الإشاعة

بين المسجونين والعسكر ورجال الضبط وكثر حديثهم عن سعادة
 « وكيل النيابة » الذي يحضر « المحاميس » إلى المصيف فتنافسوا
 وتزاحوا . . وكثرت طلبات الاستجواب . . وأصبحت أفتح
 عيني في الصباح على صف طويل من مجرمين في الجبال
 يحرقهم طابور من العساكر ، فما أكاد أخرج من « العشة »
 أى الحجرة « بالقوطة » والمايوه وبرنس الحمام حتى أتلقى
 « تعظيم سلام » من الجنود والمتهمين وهم في نشاط من هواء
 البحر وبشر متهلل يطفح من وجوههم . . فأقول للعسكر :
 — إيه كل دول ؟ . حافظوا عليهم ألا يهربوا منكم ! . .
 فيصيح بي صوت من بين المتهمين المقيدون في حبال الليف :
 — نهرب ليه . . ؟ ربنا يخليك يا سعادة البيه ؛ . حد
 يهرب من الجنة ! .

فأقول لهم وكأني أخطب نفسي :

- صدقتم ، اتمتعوا بالهوا المنعش تمتعوا ! .
- وإذا بي أسمع صوت أحدهم يقول :
- جعنا يا سعادة البيه جعنا . . الهوا جوعنا . .
- ما شاء الله ! . . أنتم جايين تغيروا هوا ؟ . .

ولكني أعترف أن منظرهم أثر في نفسي ، ومنظر سعادتهم
ملأني عطفاً عليهم . . ونسيت أنهم مجرمون ومتهمون . ولم
أر فيهم إلا تعساء مثلي حرموا طويلاً نسيم الراحة ، وفرحوا
أخيراً كالأطفال بهواء البحر .

ودفعت إلى الحراس بعشرة قروش وقلت :

— خذوا اشتروا عيش وحلاوة طحينية لحضرات المجرمين
المصيفين ! .

وكانت نتيجة هذه العاطفة الإنسانية من جانب سعادة
النائب زيادة مروعة في إحصائيات الجنح والجرائم في تلك
الفترة من انتدابي ، فقد نزل أهالي المركز بعضهم في بعضهم
ضرباً ولطماً وقذفاً رغبة في الحبس وطمعاً في التصييف على
نفقة الحكومة ، ولأول مرة أرى قرارات إفراجي عن المتهمين
تقابل بالاحتجاج الشديد والطعن في نزاهة النيابة العمومية . .
فلا أكاد أقول للحراس :

— افرجوا عن هذا المتهم ! .

حتى يصبح المتهم وهو يملأ رثتيه من هواء رأس البر :

— ده ظلم يا بيه ! . أنا لسه مقبوض على النهارده ! .

ليلة سوداء !

كانت ليلة . . . لست أدري كيف نجوت منها ؟ . إني أقولها دائماً وأنا أكاد أجن : إن وظيفة وكيل نيابة في ريف مصر هي أحياناً أشق عمل في العالم كله . . . ولا يستثنى من ذلك إلا عمل جندي الخنادق في الحروب الكبرى ! . . . سمعت آذان العصر في المسجد المجاور لدار النيابة التي كنت أديرها . . . ولكني لم أرفع رأسي الغارق في الأوراق . . . كنت وحدي القائم بالعمل . . . فقد كنا في شهر يونيو ، فطوحنا الانتدابات الصيفية بمساعدتي إلى بلد بعيد . . . كان على إذن أن أحضر الجلسات وأقوم بالتحقيقات وأحرر المذكرات وأنهض لضبط الوقائع الجنائية . . . كل ذلك كنا نفعله عن طيب خاطر ، لأن غمرة الحياة وزحمة العمل ما تركت لنا وقتاً نفطن فيه إلى عرقنا المتصبب ! . . .

ولم يكذب صوت المؤذن حتى ارتفع صوت نعل عسكري يبدق أرض الحجرة دقاً . فأدركت دون أن أنظر

أنه خفي من المركز :

— خيراً ؟ ! .

— إشارة يا أفندم ! . مشاجرة دبت بين بلدين ؟ . .

— حضرة المأمور قام ؟ .

— منتظر سعادتك في الكومبيل ! .

فعلمت أن كل شيء معد . . وأن المأمور في السيارة . .

وما على إلا النزول فوراً مع كاتب التحقيق وقد كان . .

وركبنا وانطلقنا نقطع أكثر من ثلاثين كيلو متراً في طرق

زراعية وعرة ترفع سيارتنا وتخفضها ، وترجنا داخلها وتهزنا . .

كأننا فيران في مصيدة ترجها يد صائد منتقم . . حتى أصابنا

الدوار ونال منا الكلال . . فما بلغنا البلدة موضع الحادثة ،

ووقفت السيارة حتى خرجنا منها نتأرجح كالسكاري . . ودخلنا

بيت العمدة ، وطلبت لنا القهوة . . وأمرت بفتح المحضر ،

وأنا لا أكاد أعرف لى رأساً من قدم . . وانتهينا من شرب القهوة

ومن فتح المحضر ، وأثبتنا فيه بالطبع حضور المأمور ،

وعندئذ نهض حضرته ودنا مني وهمس في أذني :

— يظهر أن الحادثة بسيطة جداً . . العمدة المغفل هول

فى الإشارة .. لا هناك ضرب ولا قتل .. مشاجرة تافهة بين
 أنفار بالهم رايق .. وأنا قائم بالأجازة الصبح بدرى مع العائلة ...
 فإذا سمحت لى بالانصراف فلانى أكون شاكرآ .. والبركة فى
 همتمكم وحضرة ملاحظ النقطة موجود تحت أمركم ! ..
 فأجيبته لى طلبه ، مراعاة لظروفه ، دون تفكير أو
 تدبير .. فما كاد يختنى .. حتى ظهرت الحادثة على حقيقتها
 فنحن أمام معركة واسعة النطاق ... وإذا جثث القتلى من
 الطرفين تخرج من غيطان الذرة محمولة على الأكتاف ..
 وإذا الرؤوس المفلوقة بالنبايت تساق إلى من كل جانب ...
 وإذا الأهالى يتجمعون حول مكان التحقيق ... يصيحون
 كلما ظهر مصاب .. يتبينون من أى بلدة هو .. فتولول النساء
 من أهله ، ويزجر الرجال من عشيرته مهديدين .. إلى أن بلغ
 الأمر حداً غلت فيه النفوس وثار الأحقاد .. فإذا الأصوات
 تعلو من الطرفين هادرة كالأمواج ، تقسم طالبة الثأر بيدها
 لا بيد القانون .. ولم يبق إلا شرارة لتندلع نار مذبحه أشد
 من الأولى خطراً وأوخم أثراً .. يحتدم أوارها تحت أنظارنا
 المتفرجة ، فتذهب بذلك هيبة الحكومة ..

هنا التفت إلى ملاحظ النقطة . . فوجدته أصفر الوجه . .
 لا يوحى منظره بالاطمئنان . . وكيف لا يمتقع لونه ، وهو
 لا يملك الساعة في حوزته غير ثلاثة من العسكر ، اثنين
 منهم بجوار الخيول . . . والثالث واقف بيننا لينادى على الشهود . .
 الأمر إذن لا بد أن يعالج بشيء من الحكمة . . فصحت بالناس
 طالباً منهم الهدوء ، وانتظار نتيجة التحقيق بشيء من الصبر . .
 فإن الحكومة تعرف كيف تتأثر لصاحب الدم . فهدأ الناس
 قليلاً . . . وباشرنا التحقيق . . ولكن كيف تستطيع أن
 ترضى طرفين متضادين ؟ . . . وما كنت أضيق الخناق على
 منهم من إحدى البلدين . . . حتى يهتف أهل البلدة الأخرى
 شامتين في صوت كالرعد :
 — فليحيى العدل . . .

حسب هذه الكلمة أن تلفظ حتى تعدها بلدة المتهم تجريحاً
 لهم وتحرشاً بهم . . . فينهضوا يلوحون بعصيهم ؛ فأهدئ الحالة
 من جديد . . بأن أستجوب متهماً من البلدة الأخرى . . فيعلو
 صياح الشماتة من البلدة الأولى :
 — فليحيى العدل ! . .

ويتكهرب الجو مرة ثانية ، وتعود العصي والمراوات والفؤوس
ترفع في الهواء .. فأكف عن هذا المتهم لحظة .. وأعود إلى
متهم في البلدة المنافسة .. وهكذا دواليك .. حتى خلت
نفسى مروض وحوش في « سرك » .. لا يدرى كيف يسكت
الزئير من حوله ، ولا يعلم أيخرج من ذلك القفص حياً ،
أم يسقط ممزق الثوب والجسد تحت أقدام الضواري المتشابكة ؟ !
ولقد أمرت الملاحظ أن يلزم الصمت .. وأن يكون رابط
الجأش .. لأننا لن نلهجاً مطلقاً إلى استعمال القوة .. وبهذا
العدد الضئيل من رجال البوليس ..

وكيف تصنع نقطة في بحر ! .. المهم أن نخرج
بكرامتنا .. ولكن كيف نخرج ؟ .. كانت المشكلة التي
تحير فكرى هي : مسألة القبض على المتهمين ! ... وقد
فطن الملاحظ إلى ذلك الأمر .. فنهض يهمس في أذنى ..
— إذا قررتم القبض على أحد الليلة .. فإن ...

— فإن هذه البلدة ستكون مقبرتنا ! ..

قلتها بالطبع في نفسى .. ولكنى أدركت مراد الضابط ...
أن البوليس الموجود معنا ، وهو لم يكف لحفظ النظام ،

أستطيع أن نقبض به على متهمين في هذا الزحام ! ؟ .
 اقترح الملاحظ أن نتصل بحكمदार بوليس المديرية ليرسل
 إلينا فرقة من الهجانة . . ولكن المسألة إذا وصلت إلى المديرية
 فإن موقف الأمور سينكشف . . ولم أرد أن يطعن في ظهوره . .
 حتى بعد أن ظهر لنا من إهماله ما ظهر . . ثم أنى حتى ذلك
 اليوم ما تعودت طلب النجدة ، ولا الشكوى من شئون العمل . .
 بل كنت أتجشم التعب ، وأتحمل التبعة خلف جدران
 الصمت والسكون . . .

رفضت اقتراح الضابط قائلاً :

— ألا يستطيع القانون أن يسيطر على الموقف بمجرد
 هيئته ؟ . . أتريد أن يقولوا إننا غرقنا في شبر ماء ؟ ! . .
 ففتح الملاحظ فاه . . وأشار إلى خضم جموع الأهالي
 المحتشدة ، حولنا ملوحة بعصيا ونبايتها ، تهدر وتزجر ،
 وتنفث من صدرها النار ومن عيونها الشرر ، ولا يدري غير
 القادر متى يفلت زمام الغرائز ، فتقع الواقعة ، وتعصف
 العاصفة ، وتطغى الأمواج تجرف أمامها كل شيء . .
 ونكون نحن بأوراقنا ومحاضرنا وتحققنا أول المخبروفين . .

لم ألق بالآلة إلى كل ذلك ... ومضيت في تحقيقي كأنى لا أرى
شيئاً حولي .. حتى حصرنا المتهمين في عشرين رجلاً من
الفريقين .. كلهم ضارب ومضروب ... عدا القتلى وهما
اثنان من الفريقين أيضاً ... واستعرضت المتهمين العشرين
أمامي ، وفي كل منهم إصابة ودم يسيل ... فألقيت
نفسى وسط شبكة معقدة تفضل فيها الذاكرة ... فإلتهم الأول
ضرب الخامس والسابع والتاسع ... وإلتهم الثانى ضرب الأول
والعاشر والرابع ... وإلتهم الثالث ضرب الحادى عشر
والخامس عشر .. وإلتهم الرابع ضرب الثانى والأول والتاسع
عشر .. وإلتهم الخامس ضرب الثالث والثامن والثانى عشر ..
وإلتهم السادس ضرب المتهم العشرين .. وإلتهم العشرون ضرب
السابع عشر ... إلخ إلخ .. ولقد أنفقت الهزيع الأخير
من الليل وأنا لم أزل أراجع وأحفظ هذا الحساب والترتيب
والوضع ، وأخلط فيه وأخطئ وأتخبط ، فأعود من جديد
أسأل : من ضرب من ؟ .. حتى ضاق صدرى ونفد صبرى ،
وصححت أقول : أجبنا نضبط حادثة ضرب أم نتعلم جدول
الضرب ؟ ..

ووصل عندئذ مفتش صحة المركز لفحص المصابين . . .
 ولم يكن نظام الطب الشرعى قد امتد وقتئذ إلى الريف . . .
 فلم يشق طريقه إلينا وسط الجموع إلا بشق الأنفس .
 وأجرى الكشف الطبى على المصابين جميعاً ، ورأى
 نقلهم إلى مستشفى المركز . . . وكان فى هذا إنقاذ للموقف . . .
 فقد استطعت أن أفهم الأهالى أنى لن ألقى القبض على
 أحد . . . ولن أنظر اليوم فيمن اعتدى ومن اعتدى عليه . . .
 فالذى يهمنى الآن هو علاج المصابين . . . فهل يريد أحد
 منكم أيها الناس أن نترك نقرأ من أهله ينزف دمه ، دون أن
 نبادر بإسعافه ؟ . . .

فسكت الأهالى وأطرقوا مقتنعين . . .

عندئذ قلت لهم :

— ساعدونا الآن على نقل مصابيكم إلى المستشفى !

فبادروا بلبون طائعين . . .

وكان الليل قد انصرم . . . وطلع الفجر . . . فقممت
 بمعاينة مكان الحادثة بغير ضجة . . . تلك الحادثة التى نشأت
 من عراك طفلين من أهل البلدتين . . . سب أحدهما الآخر

بقوله : « هي بلدكم فيها رجالة ؟ ! » .. فقام أهل بلده
لهذه الكلمة قومتهم .. ليثبتوا أنهم رجال .. وكانت تلك
المعركة الدامية بين البلدين ، التي لم يثبتوا بها إلا أنهم
أطفال ؛ ..

وقد كانوا بالفعل أطفالا إلى النهاية ... ثاروا لكلمة
وهداؤا بكلمة .. واستطعنا أن نخرجهم من معقلهم ونجرهم
خلف سيارتنا العائدة في الصباح إلى قلب المركز مع مصابيهم
وشهودهم ، راضين صاغرين كقطيع من الحملان ! ..

البندي
محظ
كما
سبي
لخص
دخ
من
الطلب
الأمر
بكل
وفوقه
يدفع
إلا

خفت من نفسى

كان ذلك فى يوم من أيام عملى فى طنطا ، وكىلا لنيابة
 البندر . . دخل على فى مكتبى كاتب التحقيق وقدم إلى
 « محضر تلبس » . . قضية نصب على الطريقة الأمريكية ،
 كما كانوا يقولون فى ذلك الوقت . . رجلان أنيقان فى سيارة
 « سبور » فخمة . . قدما من القاهرة فى طريقهما إلى الإسكندرية
 لحضور سباق الخيل . . فلما مرا بطنطا ، وقفا على حانوت
 « دخاخنى » وطلبا علبتين من السجائر ، و « فكة » ورقة
 من فئة العشرة جنيهات . . فبادر البائع المسكين إلى تلبية
 الطلب . . وكانا يصيحان به أن يسرع ، ويتكلمان بلهجة
 الأمر والنهى . . فما شك البائع فى أنه أمام رجلين جديرين
 بكل ثقة واحترام . . فهورل يقدم إليهما السجائر المطلوبة
 وفوقها تسعة جنيهات ونحو ثمانين قرشاً . . وانتظر بأدب أن
 يدفعا إليه بالورقة ذات العشرة جنيهات . . ولكنهما لم يدفعا
 إلا محرك السيارة إلى الانطلاق ، فجعلت تسابق

الريح ، حاملة بضاعة البائع ونقوده ، بينما هو واقف ، فاغراً
 فاه من الدهول ، لم تقبض كفه منهما غير الريح ! . . ولم
 يلبث أن ثاب إلى رشده ، فلطم وصاح وبكى ، وأقام السوق
 وأقعدها . . . ونهض الناس لكارثته ، وجرى رجال البوليس
 خلف السيارة يطلقون الصفافير . . وشاء الله أن يعطل سير
 السيارة ، وأن يدركها الناس والبوليس ، وأن يضبط الرجلان
 الوجهان ، وأن يشهد عليهما كل أهل السوق بما لا يدع مجالاً
 للشك في سوء فعلهما . . .

كل ذلك طالعته في « المحضر » . . وكونت في الجريمة
 رأى وهي ثابتة على الرجلين كل الثبوت . . .
 فأمرت الحاجب أن يحضر أمامي المتهمين لاستجوابهما . .
 فصعد بالأمر . . وفتح الباب . . وأدخل الرجلين الأتقيين
 . . فما كدت أراهما ويريانني ، حتى عقد الدهش لسألي ،
 وانطلق بالفرح لسانهما . . فأقبلا نحوي يقولان بدلال :
 — أهلا .. أبو تيفه ! . .

ولم ينتظرا مني دعوة . . فجذبنا مقعدين وثيرين ، ارميا
 فيهما بغير كلفة . . كأنهما في دارهما . . وتنفسا الصعداء طويلاً . .

كأنما الموضوع قد طوى . . والحادث قد محى من الأوراق . . .
وكان هذان الفاضلان من زملاء الدراسة ! . . .

ولم أدر أنا ما أفعل ولا ما أقول . . وطفقت أنظر إليهما
وإلى « المحضر » وأعيد إلى ذاكرتى ما أعرفه عنهما . . . لقد
كانا من الشباب المدلل . . الذى انصرف عن الدرس إلى
اللهو . . وترك مرحلة التعليم فى منتصف الطريق . . لينفق
يجنون ما ورثه عن الآباء والأجداد . . . محتمل جداً أن يرتكب
مثلهما هذا الجرم . . بكل استخفاف واستهتار . . ولكن
ماذا أنا فاعل أزاء هذا الاطمئنان العجيب البادى عليهما أماًى ؟ !
لقد كان المحضر الذى جاءنى به ، مصحوباً بحررز مختوم
عليه بالشمع الأحمر ، يضم العلبتين من السجائر ، موضوع
القضية ، والنقود « الفكة » . . فإذا بأحد الفاضلين يشير إلى
الحررز ويقول :

— صنف يعجبك ! افتح لنا علبة واعزم علينا يا أخى ! .
فقلت فى نفسى : « حقاً ! ليس ينقص إلا هذا . .
اعزم على المتهمين بالمضبوطات ! »
وجعل الآخر يتحدثنى عن الأيام الأولى : ويذكرنى

بالشيخ « بنجر » الذى كان يقذف تلاميذ الفصل بمركوبه
إلى أن خطر يوماً لهذا الزميل « المحترم » أن يكيد للشيخ . .
فتعمد الوقوف أمام النافذة المفتوحة ، وتحرش به . . فلما قذفه
بالمركوب تنحى عن القذيفة بسرعة البرق ، فسقط المركوب
فى الطريق . . وبقي الشيخ فى الفصل حافياً ، يلعن ويسب . .
وضحك الزميل الراوية ضحكاً مرتفعاً . . وعارضه صاحبه
وحاكاه . . وانتظرا منى الضحك ، ولكنى فى حرجى وحيرتى
أطرقت أنظر فى المحضر ، وأقلب صفحاته دون أن ألتفت
إليهما . . فقال أحدهما وهو يشير إلى أوراقى :

— كلام فارغ كتبوه على مزاجهم ، اطلب لنا فنجان
قهوة يا شيخ ! ! . أنت طول عمرك رجل كريم ! . اطلب
قهوة وقرفة وحي ضيوفك .

فتصاممت . . وجعلت أفكر فى أمرهما . . هل آخذهما
بالعنف ، وأفهمهما خطورة الموقف أو أسير فى إجراءتى برفق
وهدوء ولا أصدمهما ، وأقوم باستجوابى فى شكل محادثة لينة ،
دون أن يشعرا بشيء ؟ ! .

أثرت الثانية . . وسألتهما مبتسماً عن الموضوع . . فأجابا

أنه تلفيق في تلفيق .. فواجهتهما بأقوال الشهود وبالأدلة
والقرائن والمضبوطات ، فتخبطا واضطربت إجابتهما ..
وتهربا من وطأة البراهين بالضحك والنكات ..

فتضاحكت أنا أيضاً .. ويدي تكتب في ذيل المحضر
وصف التهمة وتشفع ذلك بالقرار المعروف : « أمرنا بحبس
المتهمين احتياطياً ويعمل لهما فيش وتشبيه .. إلخ »

وضغطت على زر الجرس .. فظهر الحاجب ، ونظر
إليهما نظرة يدعوها إلى الخروج معه ، وقد تسلم مني محضهما ..
فقال أحدهما وهو يلتفت إلى :

— طبعاً ... إفراج ؟

وقال الثاني وهو ينظر إلى الساعة في معصمه :

— أظن نلحق الشوط الأول في السبق .. أورفوار يا أبو تيفه

فقلت مبتسما بهدوء :

— أورفوار ! ..

وخرجا من مكثي بكل وقار ، وما كادا يصيران في
الردهة حتى وجدا من يأخذ بأيديهما ويضع فيها الحديد ! ..
وعند ذلك سمعت ضجة كبرى في الردهة وأصواتاً ترتفع محتجة :

— مستحيل ! مستحيل ! وكيل النيابة صديقنا ، زميلنا
أمر بالإفراج . .

ولكن العسكر ، فيما يظهر ، شدوا السلاسل واقتادوهما
إلى حيث يتفقدون فيهما قرارى . . . فقد أخذت الضججة تخفت ،
وصدى صياحهما يبتعد . . . حتى عاد السكون إلى المكان . . .
ومرت أربعة أيام . . . وجاء ميعاد تحديد أمر الحبس . . .
وجاء بهما العسكر إلى جلسة المعارضة . . فنظرت إليهما وهمست
« سبحان مغير الأحوال ! . . . »

لقد ذهبت الأناقة ، واختفت الابتسامة ، وولى الاستكبار
والاستهتار . . وإذا أنا أمام رجلين طال منهما شعر الذقن ،
وتمزقت الثياب من شد العسكرى وجذب السجان ، واتسخت
الأبدان من الرقاد على الأسفلت . . وانطفأت نظرة التدلل
والانكسار . . وخرس لسان العز ، وهتف صوت التدلل
والاستعطاف . . .

قلت فى نفسى ، وأنا أسترق إليهما النظر : جملة صغيرة
من قلمي الأحمر فى ذيل المحضر ، صيرتهما إلى ما أرى من
المذلة والهوان . . وإلى ما لن أرى من المستقبل المظلم والمصير

المدهم ! .. هذان الزميلان القديمان قد كتب عليهما أن
يقعا في يدي لأغير حياتهما الباسمة ، وأنترعهما من حلبة
السباق ، لألقى بهما في غياهب السجون ! .. كلمة صغيرة
منى ! .. يا للهول ! .. لو أتي جعلتهما « نأمر بالإفراج
عن المتهمين بالضمان المالى ... إلخ » لكانا اليوم في الإسكندرية
ينعمان بنسيم البحر ، وينطلقان بالسيارة الفاخرة ، ويطلقان
الضحكات الساخرة ... ولكنى أمرت بالحبس ...

عبارة صغيرة منى تغير مصائر الناس إلى هذا الحد ؟ !
إلى إذن لرجل مخيف ! ...

ولأول مرة وقع في نفسى شعور الخوف من نفسى ! ...
لظالما أمرت بحبس كثير من الناس .. ولكنى ما كنت
أعرفهم إلا من المحاضر والأوراق .. كانوا مادة عملى اليومى ...
أتصرف في مصائيرهم دون وعى أو اهتمام بأمرهم .. شأنى
شأن الطاهى الذى يذبح في كل يوم الدجاج والحمام والأرانب ،
دون أن يخطر له الرثاء لحالها ، أو البحث في مآل صغارها ،
أو التفكير فيما أحدثه من تغيير في مجرى حياتها ...
أما هذان الزميلان ، فإني أعرفهما وعشت معهما ،

لحظات من العمر ، هي أصفى وأجمل ما يحفظه الإنسان من أيام عمره . . ومهما يكن من أمر ذنبيهما ، فإن يدي هي التي بطشت بهما . . وقررت مصيرهما . . . وغيرت وبدلت في صفحة حياتهما .

وهبني أخطأت في تقدير الأدلة ووزن التهمة ، وأنا لست بمعصوم ، فأى كارثة أنزلتها بمستقبل زميلين !

يالى من رجل مخيف ! . ما هذه القسوة التي في يدي ؟ ! .
ما هذا الجبروت ! ! . إذا أصبت أو أخطأت ، فإن قرارى صاعقة تهبط على رؤوس الناس ، فتحدث في شؤونهم الأحداث . . من أعرف منهم ومن لا أعرف . . .

وشيعت الزميلين بنظرة أخيرة ، والحرس يعودون بهما إلى السجن وقد تجدد أمر حبسهما على ذمة القضية . . فذهبا يائسين محطمين وقد أسودت الدنيا في عيونهما المنطفئة ، بينما أطرقت أنا ، وهتفت من أعماق نفسى المرتاعة :
— اللهم اكفنى واكف الناس شرى . . .

مفتش « كعك »

لم أكن من هواة كعك العيد أو من عشاقه المعاميد، وكنت إذا ذكر أمامي هذا الاسم المكون من ثلاثة حروف يخرج من بينها حرف حلقى أحسن كأن شيئاً سيخرج من حلقى ! .. وكنت كلما قرأت في حوادث الصحف عن تلك المشاجرات التي تقع بسبب هذا الكعك بين زوجين قلت : مجانين ! .. إلى أن ابتليت . . ومن عاب ابتلى . .

بدأ حبي لهذا الكعك في بداية اشتغالي بالقضاء . . فقد كان العام الأول لتعييني يفرض على العمل دون حق في إجازة .. وجاء عيد الفطر المبارك فقام زملائي بأجازاتهم ، وتركوني أنهنض بأعمالهم .

أذعنت واستسلمت وخفضت الرأس مكسور الجناح ، وقالت : « سبحان الله ! .. كل الخلائق تعيد بين الأهل والآباء والأبناء .. وأنا أعيد بين ملفات الجنح . والعوارض والمخالفات ! .. »

وكانت صفاير الأطفال تخرق أذنى ، فأترك أوراق
 وأنهض إلى النافذة أبصر فى الميدان الناس فى حللهم الحديدية
 والصبيان فى أثوابهم الحمر والخضر والصففر ينفخون فى «الأنابيب»
 ويصخبون بهز «الشخاشيخ» ويتجمعون ويتفرقون كالنمل حول
 «المراجيح» المنصوبة بأعلامها الخفاقة ويبادرها الخفاقة! . .
 فأكتب وأقول فى نفسى : لا أنا طفل يحلولى أن أفعل ما يفعل
 الأطفال ولا أنا رجل أسعد اليوم بما يسعد به الرجال . . ولكنى
 مخلوق فرض فيه أن يعيش بلا قلب ولا شعور وسط عالم يصبح
 بالفرح والهناء . . مخلوق كل عمله اليوم أن ينتظر حتى ينقلب
 الفرح إلى ترح . . وتتحطم أطباق الوئمة . . هكذا جلست فى
 مكتبى ألتقى أوراق الحوادث التى يسفر عنها العيد . . من نسل
 محفظة قروى . . وتعدى سكران عرييد ومضاربة بين تجار
 فسيخ إلى سقوط طفل من أرجوحة إلخ . . إنه الوجه الآخر
 السيئ من العيد هو وحده الذى سمح لى أن أتأمله وأحلق
 فيه . . .

ولكن الله لا ينسى المحرومين ، فقد أرسل إلى زميلا متزوجا
 فى المدينة ، دعانى إلى زيارته قائلا :

ليس
 فلن
 لى
 المنقو
 عجم
 شى
 جعل
 أعرف
 وأفض

يساف

— تعال أذقك كعكنا !!

فكدت أصبح :

— كعك ، أعوذ بالله ! ..

ولكنى تذكرت ما أنا فيه . . من وحدة وهم وغم . . فقلت :

ليس هذا وقت البطر والتمنع والترفع . . . مهما يكن « الكعك »

فلن يكون أثقل ولا أمر من ملفات الجنح . . . وذهبت وقدم

لى صاحبي فنجاناً من القهوة وطبقاً من كعك العيد بوجهه

المنقوش ، وسكره المرشوش . . فتناولت كعكة وقضمت وبلعت .

عجباً ! .. ياله من استكشاف ! . إنه لذيذ . . إنه ألد

شئ ذقته فى حياتى . . أترانى أبالغ ؟ . . أتراها مرارة حياتى

جعلت كل شئ فى فى لذيذاً . . لست أدري ولكن الذى

أعرفه أنى أحببت الكعك . . وتناولت كعكة ثانية وثالثة . .

وأفضيت إلى صاحبي باعجابى فقال متواضعاً :

— وكيف لو ذقت كعك قاضى البندر ؟ .

— وكيف السبيل إلى ذلك ؟ .

— هلم بنا نزره ونعيد عليه . . إنه هنا مع أسرته ولم

يسافر . . .

— هلم . . .

وزهبنا وقدم إلينا كعكه . فإذا هو حقاً أتقن صنعاً وأمتع
طعماً ، فأبديت عجبى وإعجابى ، فقال قاضى البندر .

— وكيف لو ذقت كعك قاضى المركز ؟

— أهو هنا ؟ .

ولم أتم . . فقد عولت على زيارته فوراً . .

وزهبته بالفعل إلى قاضى المركز وقدم إلى طبقه ، فذقت
وقد أصبحت لى خبرة تمكّنى من الحكم على دقة الصنعة وجودة
الدقيق وامتياز السمن منذ القضة الأولى . . فحكمت له . .
فقال لى :

— إذا كنت تريد حقاً أن تذوق كعكاً فذق من كعك

القاضى الشرعى ! . . .

فلم أجب ولم أراجع . . . ويممت فى صمت إلى منزل
القاضى الشرعى . . وقدم إلى كعكه . . . فما كادت رائحته
تبلغ أنفى حتى أدركت لطول مرانى حقيقة أمره . فقلت فى
نشوة :

— نعم . . نعم . . هذا هو الكعك ! . .

ومضى العيد هكذا . . . وأنا أنتقل من طبق إلى طبق . . .
 بعد أن كان مقدراً لي أن أنتقل من جنحة إلى جنحة . . .
 وعاد زملائي ورؤسائي إلى أعمالهم يسألونني :

— ماذا فعلت في العيد .

فقلت مزهواً كمن استكشف في نفسه موهبة :

— اشتغلت « مفتش » . . .

— مفتش قضائي ؟

— مفتش كعك ! .

الباحثون عن العدل !

إذا كان على الأرض عدل فإنه يجب التفريق بين مهنة ،
تتحمل أعباءها ساعات محددة ، ومهنة لا حدود فيها لتبعاتك . .
قد تنتزع من فراشك انتزاعاً لتلبي نداءها ، وتلغى راحتك
إلغاءً لتؤدى نحوها واجبك . . . يجب التفريق بين مهنة ترتدى
كالقميص في الصباح وتخلع عند الظهر . . . ومهنة كالخاتم
النارى يطبع جسمك وشخصك وروحك وضميرك ، فلا تخلع
عنك صفتك في بيت ولا مكتب ، ولا في ليل ولا في نهار . .
يدخل في باب هذه المهنة الأخيرة رجال البوليس ، ورجال
القضاء . . . ولقد رأيت بعيني الجهد الذى يضنى هؤلاء وهؤلاء ،
فقد كنت واحداً منهم في يوم من الأيام . . . وإن أنسى تلك
الليالى التى كنت أمضيها في الأرياف ، استمع إلى نقيق الضفادع
في الغيطان ، وأنصرف في أكداس ملفات الجنج والمخالفات
تحت ضوء « لمبة » نمره خمسة قد اجتمع عليها الناموس والهاموش . . .
فلماذا فرغت من عملى ومن عشائى ، وقمت إلى فراشى موجه

الظهر كالمضروب بالسياط ، التمس ذخيرة من راحة أواجه بها
 الغد ، فأني أنهض وأنا أسمع وقع الأقدام في الطريق ، خشية
 أن يكون الخفير النظامي مقبلاً عن جناية تنزع غنى راحة الليل
 التي هي من حق الدابة والوحش والطير . . . كنت أحياناً
 أحسد السجين الذي أستجوبه وأودعه السجن . . وأقول : « هذا
 على الأقل يملك ليله . . أما أنا فحتى ليلي ليس ملكي ! . .
 أما رجل البوليس فله مثل هذا النصيب وأكثر . . فإن
 كل مصيبة تخطر في بال الحكومة لا يمكن أن توضع إلا على
 كاهل البوليس . . فهو المسئول عن الأمن والنظام والضرائب
 والأموال وتنفيذ الأحكام الجنائية والمدنية والشرعية ، والتعليمات
 الخاصة بالرى والقرعة وضبط الأسلحة وتهريب المخدرات
 والممنوعات . . إلخ . .

كل وزارة من وزارات الدولة تلقى حملها على هذه النجوم
 أو « الضبابير » المثبتة فوق كتفي رجل البوليس . . والله لو
 كان لهذه « الضبابير » أجنحة لطارت من هول ما يلقى عليها ،
 ولو كانت من نجوم السماء ، لفضلت أن تدور في فلك الشمس
 على أن تدور مع حضرة المأمور أو الضابط في خط سيره

اليومى . . .

كنت أقول لزملاي من رجال البوليس ونحن نقوم ليلا
إلى الوقائع الجنايية « لا تتبرموا . . هذا واجينا . . نحن الساهرين
على أمن البلاد ! . . . » .

فكان يهمس من بينهم صوت : « لو ساوونا فقط بأولئك
الساهرين فى النوادى والكلوبات ؟ »

المساواة ! . . هذا شىء ليس من حقنا أن نطلبه . . .
ولكن الذى نطمع فيه هو أن يكون هنالك ميزان عدل . . يزن
جهودنا ، ويقدر لها حقها ويمنح هذا الحق فى مواعيده بلا
مماطلة ولا إبطاء . . .

• • •

كنت أقول ذلك وأنا أحس فى قرارة نفسى مرارة الظلم الذى
أعانيه . . . فما من أحد يحفل بمنحى الدرجة التى كنت أستحقها
لا بحكم عملى المرهق ، ولا بحكم وضعى القضائى . . . إلى أن
نقلت من هذا السلك إلى وظيفة فى وزارة من الوزارات . . . حيث
جلست فى حجرة أنيقة الرياش ، وقد ألحقوا بى « سكرتيراً »
خاصاً . . . يضرب على الآلة الكاتبة خطاباً واحداً كل أسبوع .

فلماذا الدرجات تنهال على تقديرًا لما أقوم به من أعمال . . . هي تناول القهوة ومطالعة الصحف والمحادثة في التليفونات . . . والانصراف إلى الغداء والنوم والملاهي والسهرات ! . . . وسرعان ما نسيت الظلم والعدل . . . إلى أن جاءني زميل قديم ، كان معاون إدارة ، وظل بعد تلك الأعوام كما كان . . . قال لي :

— أتعرف « ما هو معاون الإدارة ؟ » . . . هو حمار السباخ في المديرية أو المركز . . . نعم . . . أنا حمار سباخ حضرة المأمور . . . يلقي في « الغبيط » الذي على ظهره كل ما قبح وقذر وشق وثقل من أعمال . . . وهيات مع ذلك أن تلمع على كتفي نجوم ! . . .

— أتريد هذه النجوم ؟ . . .

— هذا أمل بعيد . . . أبعد من نجوم السماء ! . . . ولكنه العدل . . . ذلك العدل الذي لا يوجد إلا فوق . . . وأشار إلى السماء . . . إشارة نمت عن عقيدة ثابتة وإيمان راسخ ! . . . فقلت له :

— ما دمت تؤمن أن في السماء عدلاً . . . فلا بد أن يهبط

منه يوماً شئ على هذه الأرض . . .

وانصرف الرجل . . . وتركنى أفكر . . . وحلقت في
التفكير حتى وصلت إلى ما تخيلته السماء . . . فوجدت عجباً . . .
وجدت بهواً متسعاً . . . فيه رهط من الملائكة على مكاتب . . .
وقد بدت عليهم الراحة وما يشبه الثناؤب وإذا ملاك يدخل عليهم
كما دخل على « معاون الإدارة » ، قد ظهر عليه الجهد والتعب ،
وهو يصيح فيهم :

— أتعرفون من هو عزرائيل ؟ هو الجراب الذى تلقى
فيه لعنات البشر . . . هو العمل المتصل . . . الذى لا يعرف
فترة راحة ولا همود . . . هو اليقظة بالنهار والسهرة بالليل . . . هو
الذى يقوم بعمله وحده منذ بدء الخليقة . . . فيقبض الأرواح
التي تزداد على مدى الأحقاب عدداً . . . فى كل يوم يضاف
إلى ما يثقل كاهلى صنف جديد من أصناف الموت . . . لم
يعد الطوفان بكاف . . . ولا الحروب ولا الطاعون . . . لقد
اخترعوا قنبلة ذرية . . . تحصد مئات مئات الألوف فى لحظة
عين . . . فأقع فى حيص بيص بمفردى فى الميدان ، أجمع هذه
الألوف المؤلفة من الأرواح . . . مسرعاً مضطرباً خائفاً أن

يفلت منى بعضها ، أو ترد فيه الروح ، قبل أن أقبضها . .
 فأحاسب على الإهمال . . أنا أصنع هذا كله ، علاوة على عملي
 الأصلي . . بينما أنتم تجلسون على هذه الأرائك ، لا تصنعون
 شيئاً . . . وتحسبون مثلي وفي مرتبتى من الملائكة . . . وربما
 أشرف منى وأولى أحياناً بالتقديم . . .

فارتفع صوت احتجاج من بين صفوف الملائكة الجالسين :
 — نحن لا نصنع شيئاً ؟ ؛ . . .

— طبعاً . . . ماذا تصنع أنت الآن يا جبريل ؟ . . لقد
 كنت تهبط لتبلغ الأنبياء . . وقد انتهى عهد التبليغ والأنبياء . .
 فما هو عملك الآن ؟ . أخبرنى ؟ . وأنت يا إسرافيل . . كل
 عملك أن تنفخ فى الصور يوم القيامة ، فمن الآن إلى يوم القيامة ،
 ماذا تصنع ؟ أخبرنى ؟ . أنا مظلوم يا إخوانى ! . . أنا مرهق
 بالعمل . أعبأى تزداد كل يوم ثقلاً . . أنا وحدى من دون
 الجميع الذى تتضخم أعماله . . بالأمس كان الواحد يغتال
 الآخر بسكين أو برصاصة . . أما اليوم فهو يستخدم قنبلة تودى
 بعشرات من الأبرياء . . . هذه كلها أليست أرواحاً جديدة
 محسوبة على أنا ؟ . . ومع ذلك لم يفكر أحد فى انتداب ملاك

جديد يساعدي ، بل لم يفكر أحد في إنصافي ورفع درجتي
 بين زملائي . . أو رفع مستواي بما يتفق مع الزيادة في العمل . .
 ولم أسترسل في الخيال أكثر من ذلك . فقد هبطت الأرض
 فجأة على صوت باب حجرتي يفتح ، وقد ظهر معاون الإدارة
 وقد عاد يقول :

— لا تؤخذني . . فكرة خطرت لي وأنا ذاهب فرأيت أن
 أرجع لأخبرك بها . . إن لم يكن هنالك أمل في « نجوم السماء »
 فلا أقل من النظر في أمر إنصافي ورفع مستواي بما يتفق مع
 أعمالي . .

فقاطعته على غير وعي مني :

— أنت أيضاً ؟ ! .

— أنا أيضاً ماذا ؟ .

قالها محملاً في بعينه من خلف منظاره ذي الإطار المعدني
 الأبيض . فقلت له وأنا أخلق بفكري :

— اسمع يا حضرة المعاون ! . . عند ما خلق الله « التمييز »
 خلقه في كل مكان وفي كل شيء . . التمييز بين الحظوظ . . .
 والمصائر والأقدار ، كالتمييز بين الحسن والقبيح ، والصحة

والمرض ، والليل والنهار . . لا يوجد شيء اسمه عدل مطلقاً . .
 كما لا يوجد ما يسمى السعادة المطلقة . . إنما الإنسان الواحد
 تتناوبه حالات مختلفة من عدل وظلم ، وسعادة وشقاء ، وصحة
 ومرض ، وليل ونهار . . فإذا طلبت العدل المطلق فأنت كمن
 يطلب نهراً بلا ليل . . لقد كان من حظك أن تخلو كتفك
 من ضوء النجوم . . هل لك أولاد ؟ . .

— عندى ولد . . .

— هذا هو الذى قد تشرق عليه نجوم السماء ! . . إن العدل
 قد يلحقك فى عقبك وخلفك . . وقد يحرمهم القدر ما سخا به
 عليك . إن حسابنا الجارى على الأرض لا يفتح لحياة واحدة
 ولا يغلق بانتهائها وحدها . . حتى « عزرائيل » الذى يشكو من
 كثرة العمل ، سيأتى يوم يرتاح فيه إلى الأبد . . . عند ما تقوم
 القيامة وبلغى الموت . . فلا يجد غير الأرائك يتكىء عليها ويتشاءب
 ويحسده الآخرون كما كان يحسدهم . . .

— عزرائيل ! . وما دخل عزرائيل هنا ؟ ! . .

قالها معاون دهشاً . . وهو يفحصنى بعينيه الضعيفتين . .

فتنبهت وقلت له على الفور :

— عفواً . . هذا موضوع آخر . . بيني وبينه ! . . المهم
أن على الإنسان و . . « غير الإنسان » أن يتحمل حظه بشجاعة
وأن يرتدى « الدور » الذى ألقى عليه بصبر وجلد . . وأن ينتظر
ثابتاً آملاً دورة العجلة الكبرى للقدر . . تلك العجلة التى
لا تكف عن الدوران ، فتضع الأسفل فى الأعلى والأعلى فى
الأسفل . وهكذا دواليك .

كان لى صديق ، يا حضرة المعاون ، كلما أصابه سوء ،
وأردنا أن نهون عليه ، صاح فينا صابراً : « ماعلهش » ! . .
هو الفلك تسمر ؟ ! . . » .

فأطرق المعاون ، وطفق يردد هامساً هذه الجملة مقتنعاً
مؤمناً . . . وكأنما دخل قلبه الأمل والعزاء . . ولكنى استأنفت
قائلاً له :

— هذا موقفنا نحو الله . . . معشر البشر . . ولكن ذلك
لا يمنع من أن يكون لنا موقف آخر نحو أنفسنا . . إن الله
لن يزيل القبح ولا المرض ولا الظلم ولا الليل . . لأن وجود
الأضداد من النواميس اللازمة للخلقة . . ولكن على البشر أن
يدروا ما استطاعوا ، عن أنفسهم الضرر . . وعليهم أن يسعوا

فى سبيل الصحة والجمال . وأن يكافحوا من أجل العدالة والنور .
 — وكيف نكافح ضد ما خلقه الله ؟ ؛ .

— إن الله قد وضع فى كل شىء بذور ضده . . فإذا
 فتحت مغاليق المرض وجدت فيه بذرة الصحة ، وفى القبح
 بذرة الحسن ، وفى الظلم بذرة العدل . . وفى الليل بذرة الفجر ! .
 إن الكون أدق مما تتصور صنعاً . . والله أبرع مما تتصور
 صانعاً . . ولم يترك شيئاً للفوضى : . . .

— وما عمل البشر إذن ؟ . .

— فليح الأرض . . واستخراج البذور ، واستنباتها . . .
 زرعاً نضراً وثمرأ شهياً . .

الطاجن وصل ! ..

كانت المشكلة التي تشغلنا أكثر مما يشغلنا عملنا هي مسألة الطعام ، وهل في ذلك عجب ؟ .. إن الطعام هو مشكلة الأمن واليوم والغد .. وهو الذي تقوم من أجله الحروب ! وتعتقد من أجله المؤتمرات .. على أن مشكلتنا كانت أعوص من أى مسألة طرحت على موائد البحث .. لأنها لم تكن متعلقة بالطعام ذاته .. بل بطهى الطعام .

ولقد طرحنا وجوهها على موائد الأكل ، حتى انتهى بنا الأمر إلى قبول الواقع بغير بحث ..

كنا ثلاثة — منذ عهد بعيد طبعاً — نقطن مسكناً في مدينة دمنهور : قاضى البندر ووكيل نيابتها وهو أنا ولا فخر ، ثم قاضى إيتياى البارود .. وكانت النفقة بيننا بالثلث في كل شئ .. وكان زميلاي متزوجين ، ولهما بيتاهما في القاهرة .. ولكن ضرورة العمل ونظام الجلسات . اللذين يقتضيان بعدهما عن بيتيهما في العاصمة أربعة أيام في الأسبوع ، فرضا عليهما

هذه التكاليف الإضافية . . فكان من مصلحتهما الاقتصاد غاية الاقتصاد . . . وأدى بهما خوفهما من ترك الحبل على الغارب أن قررا وضع نظام لشئون مسكننا يماثل نظام الجلسة القضائية في محاكم الاستئناف، أى أن يكون الحكم للأغلبية . . فأننا مثلا لا أستطيع أن أنفرد باختراع لون من ألوان الطعام إلا أن يؤيدنى واحد منهما . . وهكذا الحال مع الجميع . . وكان لنا خادم يقوم على خدمتنا ولكنه لا يفقه شيئا فى طهى الطعام .. وكان ضئيل المرتب، فحكمت الأغلبية ببقائه مع عدم الاعتراض على ما يقدمه ويسميه مأكولا . . حتى جاء الفرج ذات يوم فى صورة اقتراح تقدم به « حاجب الجلسة » الذى رثى لحالنا . . فقال أعزه الله :

— إذا شئتم يا أصحاب السعادة فإن امرأتى تعد لكم الطعام فى دارنا كل يوم واحمله إليكم ساعة الغداء ؟ . . . فوافقت الأغلبية على شرط أن يكون الطعام مما يطهى فى الفرن لنضمن البساطة والنظافة . . .

منذ ذلك اليوم ونحن لأننا كل إلا فى « طاجن » من فخار أحمر . . . قد أسود من القدم والدخان « وهباب » الفرن . . تلقى

لنا فيه امرأة الحاجب قدراً من البطاطس وقدراً من اللحم . . .
يتناقص مع الأيام . . . دون أن تنقص النقود . . . فلا يكاد يكفي
بطوننا . وفيها بطن قاضي إيتاي وهو رجل عربي الأصل سليل
قبيلة من قبائل البدو، يضرب بلقمته قاع الطاجن ، فإذا أضخم
اللحم وأطيبه قد وقع له . . . ولا يقوم من المائدة حتى يمسح
قعر الوعاء بآخر كسرة ونحن نصيح فيه :

— اترك شيئاً لغداء الخادم ! .

— غداؤه على الله . . . إن الله لا يترك مظلوماً ! . .

يقولها وهو ينهض عن الخوان يجرع من « القلة » ويتجشأ . . .
وصرنا منذ ذلك الحين لانسمى خادماً باسمه . . . بل أطلقنا عليه
اسم « المظلوم » . . . وجعلنا لانهاديه إلابقولنا : « هات يا مظلوم
كوب ماء » . . . « امسح يا مظلوم الحذاء ! » . . . وهلم جرا . . .
وكان يسمعنا أحياناً بعض الزوار من الأصدقاء ، ونحن
ننادى خادماً بهذا الوصف . . . فيتساءلون دهشين :

— أيوجد مظلوم بينكم ؟ ؛ وأنتم كلكم رمز العدالة ؟ !

فيقول قاضي إيتاي البارود ببديهته الحاضرة :

— حيث توجد العدالة يوجد الظلم ؛ . . .

وكان قاضى إيتيائى يمضى إلى جلسته بقطار الصباح الباكر
ويعود بقطار الساعة الواحدة ظهراً . . . وهو يحرص على إنهاء
جلسته فى هذا الميعاد ليلحق بهذا القطار . . . لأنه إذا فاتته
فلن يجد أمامه غير قطار يصل إلى دمنهور فى منتصف الثالثة ،
والمحجى به ، لا قدر الله ، معناه المحجى بعد موعد الغداء وفراغ
الطاجن وإنصاف « المظلوم » !! .

وكنا نحن من جانبنا : أنا وقاضى البندر . . وعملنا متحد
فى جلسات الجنح . . والجلسة تتشكل منه ومنى . . نحرص
على إنهاء الجلسة قبيل موعد حضور القطار القادم من إيتيائى
البارود ، فقد تشاء أحياناً المصادفة السيئة أن يتم إنصاج الطاجن
فى الساعة الواحدة . . وأن يسبقنا إليه قاضى إيتيائى . . فإذا
حدث هذا والعياذ بالله ، فنحن أمام كارثة لا نستطيع لها دفعاً
ولا رداً . .

أخذتنا ذات مرة حماسة العمل وكثرة القضايا المعروضة
على المحكمة . . فنسينا الوقت ونسينا أنفسنا ، وإذا حاجب
الجلسة ينظر فى ساعته ويقبل مسرعاً يهمس بقرب المنصة :
— الطاجن وصل البيت من بدرى . وقطر إيتيائى البارود

وصل المخططة من زمان ! . . .

— راح الغداء وعلينا العشاء ؛

لفظها القاضى يائساً ثم نظر إلى قائلاً بصوت مرتفع :

— ما رأى النيابة ؟

— النيابة فوضت الرأى للمحكمة . . .

— ترفع الجلسة للاستراحة . . على أن تعقد فى الساعة

الخامسة بعد الظهر ! . . .

ونفض من كرسيه يخلع وسامه الأحمر . . وأنا فى أثره أخلع

وسامى الأحمر الأخضر . . ووثبنا إلى قاعة المداولة نطرح فيها

ملفاتنا . . . وخرجنا إلى عرض الطريق راكضين ونحن نقول :

— يا نلحق الطاجن . . يا منلحقهوش ! . . .

• • •

لبشنا على هذا الحال زمناً . . . لا طعام لنا إلا طاجن

البطاطس فى الفرن . . حتى عاد قاضى البندر من القاهرة ذات

يوم يقول لنا . . وكأنه ينبهنا من غفلة :

— يا لعجب أمرنا ! حتى مجرد الذوق كدنا نفقده ! . . .

ذكرت لزوجتى عرضاً مسألة الطاجن . . فدهشت وقالت :

« ألا توجد عندكم صينية ؟ . هل يوجد ألد من صينية البطاطس في القرن ! . . دعكم من هذا الطاجن وجربوا الصينية يا ناس ؟ »

فصحنا بزميلنا الطموح :

— ومن أين لنا الصينية ؟ .

— نشترها .

— أنا لا أدفع أكثر من عشرة قروش ! . .

قالها قاضي إيتيأي وهو يخرج نصيبه من جيبه قطعة فضية .
وأخذنا الأصوات . . . فأقرت الأغلبية الموافقة على شراء الصينية على شرط أن لا يتجاوز ثمنها ثلاثين قرشاً . . . وبأدركنا فأفوضنا برغبتنا إلى حاجب الجلسة . . . فهرش رأسه ثم قال . . .

— صينية نحاس بـ « ثلاثين قرش » ؟ ! . .

مستحيل ! . . أقل من خمسين أو ستين « قرش » . .

— هذا جنون ! . ستين « قرش » ! لا . . لا داعي أبداً
فلنبق على الطاجن إلى آخر الدهر ! . قلناها جميعاً بصوت واحد ، وأقبل باب المناقشة في هذا الشأن . . وانتقلنا إلى جدول الأعمال . . ومضى كل منا إلى عمله . . قاضي إيتيأي ركب القطار إلى محكمته . . وأنا وقاضي البندر ذهبنا إلى محكمتنا حيث

تنتظرنا أكداس المخالفات والجنح . . وظل حاجب المحكمة بباب
الجلسة ينادى على القضايا . . وظلت القضايا تتوالى أمامنا ،
والأحكام تترى من فم المحكمة كأنها طلقات من مدفع حتى
عرضت علينا قضية رجل اتهم بأنه ضرب زوجته بعضا فأحدث
بها إصابات اقتضت علاجاً أقل من عشرين يوماً . . فما كاد
الرجل يمثل أمام المنصة ، حتى نهض محام يقول :

— حاضر مع المتهم ؛ . .

وكانت الساعة قد اقتربت من الواحدة . . فالتفت إلى
القاضي ، وفي عينيه نظرة فهمت معناها . . فأنا أيضاً كان
يجول في خاطري عين المعنى . . محام الآن ؟ . . ومرافعة
بإسهاب وبيان ؟ ! . . ما من شيء بالطبع يستعجل هذا المحامي
وما من خطر يهدد غدائه . . فإن الله لم يبتله بقاضي إيتيائي . . .
وبادرت المحكمة تسأل المتهم بسرعة :

— اسمك ؟ .

— محمد عبد المغيث شمروخ .

وأراد المحامي أن يتظرف فقال :

— اسمه « شمروخ » ولكن الضرب حصل بعضا رفيعة ! . .

فلم يبد على المحكمة التفات إلى ذلك المحامي « الرايق » . .
 وجعل القاضي يقلب في أوراق الملف ويبحث عن التقرير
 الطبي . . . وهو يتابع أسئلته بصوت آلى . .

— عمرك ؟ .

— حوالى خمس وثلاثين سنة .

— صناعتك ؟ .

— صانع صوائى نحاس ؟ .

وهنا حدث انقلاب فى هيئة المحكمة . . فقد ترك القاضي
 الملف ورفع رأسه ناظراً إلى المتهم باهتمام . . وكذلك فعلت
 النيابة . . وأقبل القاضي على المتهم يسأله بعناية :

— صوائى نحاس مما يستعمل فى الأكل ؟ .

— فى الأكل وغير الأكل . . حسب طلب الزبون . . .

— نقصد صوائى مما يطهى فيها البطاطس فى الفرن مثلاً ؟ ! .

— بطاطس يا سعادة البك وفطير ومكرونة . . وكل لوازم

الفرن . . .

— قل لنا الآن بالضبط . . . صينية نحاس تتسع لأقنين

بطاطس وأقة لحم ؟ . .

وعندئذ تدخلت النيابة في شخصي ..

— لتكون بحيث تتسع لثلاث أوقات بطاطس وأقعة ونصف

من اللحم .. يجب أن نحسب حساب « المظلوم » ! ...

فوافق القاضي على ملاحظتي .. وقال مؤيداً :

— صدقت .. يجب منذ اليوم إنصاف « المظلوم » ! ..

وأشرق لهذه الحملة وجه المتهم ، فهتف من أعماق قلبه :

— يحبي العدل ! .. أنت يا سعادة القاضي كلك نظر ..

وعرفت أني مظلوم ! .. فليحيي العدل ! ..

وظن المتهم أن المحكمة قد برأته .. ولم يفهم المحامي من

الأمر شيئاً ! .. فالمحكمة لم تسأل المتهم بعد عن ضرب ولا لطم ،

وتحرك المتهم للانصراف .. فبادره القاضي صائحاً فيه :

— تعال يا راجل ! .. قف مكانك .. ورد على أسئلة

المحكمة ! ..

— عسوبك يا سعادة البك ...

— لنعد أولاً إلى مسألة الصينية .. وما هو الحجم ...

حجم الصينية المذكورة ؟ ..

ولم ير المحامي في هذه المناقشة الغربية بصيصاً يمكنه من

تتبعها ، فأخذ يقلب على عجل أوراق صورة المحضر في ملفه . .
ويهرز رأسه حيرة وعجباً وعجزاً . . . وأنتهى به الأمر أن قام
يقول :

— يا حضرة الرئيس . . الضرب كما هو مدون في محضر
البوليس ومن أقوال المخني عليها حدث من عصا رفيعة وليس
من صينية نحاس ! . .

— لحظة يا حضرة المحامي . . لحظة . .

قالها القاضى وهو ينظر إلى المتهم ماضياً فى سؤاله . . .

— أخبرنا ما هو حجم الصينية بكل دقة . .

— هذا شىء حسب الوزن يا سعادة البك ! . . .

— الصينية الصغيرة وزنها ثلاثة أرتال . . . والمتوسطة ما بين

خمسة وستة .

فقلت للرجل من كرمى النيابة :

— أعمل حسابك على ستة أرتال ! . .

فصاح القاضى بقوله :

— هذا معقول ! . . . صينية ستة أرتال . .

وظفّق المحامى المسكين يسمع هذا الكلام . . وهو كالمذهول

ينقل عينه وأذنه بين القاضى ووكيل النيابة والمتهم ، ويحاول أن يفهم مما يدور بينهم شيئاً فلا يستطيع فيعود إلى ملفاته يقلب صفحاتها بسرعة . . وهو يقول كاخاطب نفسه :

أنا قرأت القضية ، لو لم أقرأ القضية . .

ولم يطق صبراً فجعل يهمهم فى مجلسه ويزفر ويهدر :

— لو كانت المحكمة تدلنى أين ورد ذكر الصينية فى الأوراق ، لا فى محضر التحقيق ولا فى التقرير الطبى ولا على لسان الشهود . . ما من إشارة عابرة إلى صينية ؟ سأجن يا ناس وأفقد عقلى ! . .

ومع ذلك فكان عليه أن ينتظر مرغماً حتى تنتهى المحكمة من استجواب موكله . . . ففرك جبهته بكفه ، وركز انتباهه طلباً للفهم . . والمحكمة ماضية فى سؤالاتها . .

— وما سعر الرطل النحاس ؟ . .

— سعر السوق اليوم حوالى خمسة قروش .

— أى أن الصينية المتوسطة الحجم ثمنها نحو ثلاثين قرشاً . .

— تقريباً . . .

وكان حاجب الجلسة قد أرهف أذنيه عندما وصل الحديث

إلى السعر . . . فما كاد يسمع أن الصينية ثمنها ثلاثون قرشاً حتى
 حاج وماج . . . وزيجر وصاح من مكانه :
 — تصدق المحرم ده يا سعادة البك ؟ ؟ .

فالتفت المحامى ، وقد أخذته البغته والدهشة من كل مكان ..
 فيها هوذا حاجب الجلسة أيضاً قد دخل فى الموضوع . . . وقد
 فهم المضمون . . القاضى والنيابة والمتهم والحاجب . . . كلهم
 يتحاورون فى أمر هو وحده الذى لا يدرك كنهه . . . هو
 المحامى الذى قرأ القضية وأعد مرافعته البليغة فيها . . . وهى لها
 جوها . . . حتى النكتة الرائقة ، والإشارة البارعة . . ودرس
 كل ظرفها . . واحتاط لكل مفاجأتها . ها هى ذى مفاجأة
 ما كان ينتظرها . . وما كانت لتخطر له على بال . . كنت
 أبصر على وجهه فى تلك اللحظة هيئة لن أنساها . . لقد كان
 مضحكاً فى حيرته إلى حد لا يتصوره . . ولو رآه لضحك هو
 منه حتى آخر حياته . . . ولكن هذه اللحظة لم تدم طويلاً . .
 فسرعان ما انتهينا من مسألة الصينية وعدنا إلى موضوع القضية
 الأصلية . . . واستطاع القاضى أن يحول دفة المناقشة بلباقة
 حتى دخل بها جوهر التهمة . . كما يدخل الربان الماهر بالسفينة

ميناء الأمان ، بعد أن عبثت بها تيارات المحيط . . وعاد إلى
الحامي اطمئنانه عند ما بدأت القضية تسير في مجراها الطبيعي . .
فترافع ودافع كما انتهى ، ونسى لحسن الحظ مطلع المناقشة
الذي حيره . . ولم يسائل بعدئذ نفسه فيه . . . ولم يكشف له
سره بالطبع حتى اليوم . . .

• • •

هكذا عشنا فترة من الزمن . .

نكد ونعبث ، ونعمل ونلعب ، ونخلط الجلد بالهزل ،
ونمزج الوقار بالضحك . . ونغلف تبعاتنا بثوب من المرح ،
ويصبغ لنا الشباب كل شيء بلون الخمر . . وكانت لكلمة
« الغد » في صدورنا خفقة ، كخفقة الورد وهو يتلقى قطرة
الندى في كل فجر . . وكان لكل شيء في أفواهنا طعم . . .
ولو كنا نعرف أن لذة « الطاجن » القدر قد ذهبته معه ، ولن
نجدها بعد ذلك في أفخم الموائد ولا في أفخر الولائم . . وأن
حلاوة المناقشة في عشرة قروش لن تشتري فيما بعد بآلاف
الجنيهات . . لكننا قدرنا قيمة ما نملك ، وعلمنا أن السعادة
كانت هابطة في مسكننا دون أن ندرك . .

هكذا عشنا تلك الفترة إلى أن فرقت بيننا الأيام وبعثرتنا
الأقدار . . فانتقل قاضي إيتيأي إلى جوار ربه ووصل قاضي
دمهور إلى أرقى المناصب القضائية . . وانتحيت أنا جانباً أدون
من حين إلى حين صفحة من هذه الذكريات . .

فهرس

٧	.	.	.	.	الوزير جعفر
٥١	.	.	.	.	سقطوا في الإخراج
٦٤	.	.	.	.	شاعرة المهجاء
٧١	.	.	.	.	مصيفون في السلاسل
٧٨	.	.	.	.	ليلة سوداء
٨٧	.	.	.	.	خفت من نفسي
٩٥	.	.	.	.	مفتش «كذلك»
١٠٠	.	.	.	.	الباحثون عن العدل
١١٠	.	.	.	.	الطاجن وصل

الجزء الثانى من كتاب الفتنة الكبرى

على وبنوه

للدكتور طه حسين

تصوير دقيق لأحداث الفتنة الكبرى فى الإسلام
منذ قتل عثمان إلى أن مات يزيد بن معاوية وتجليه لنشأة
الخوارج وتنظيم حزب الشيعة وتبيين لنشأة الملك التقليدى
الذى يقوم على السلطان القاهر لا يصدر عن الشعب
ولا يحكم للشعب . . .

٢٨٨ صفحة من القطع الكبير الثمن ٤٠ قرشاً

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً

الطبعات الجديدة من الكتب الآتية في

سلسلة اقرأ

- | | |
|-------------------|--|
| شاعر الغزل | للأستاذ عباس محمود العقاد العدد ٢ |
| عود على بدء | للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني » ٤ |
| شاعر ملك | للأستاذ علي الحارم » ٦ |
| مذكرات دجاجة | للدكتور إسحق موسى الحسيني » ٨ |
| شفاء النفس | للدكتور يوسف مراد » ١٠ |
| الوعد الحق | للدكتور طه حسين » ٨٦ |
| المعذبون في الأرض | للدكتور طه حسين » ١١٨ |

ثمان الكتاب ٥ قروش

دار المعارف بمصر

هل مجموعتك كاملة في

سلسلة اقرأ

اطلب الأعداد الناقصة من دار المعارف بمصر أو
من أحد مكاتبها أو فروعها :

المركز الرئيسي : شارع مسيرو ٥ بالقاهرة ت. ٤٩٨٦٨

فرع الفجالة : شارع كامل صديق ٩ ت. ٤٩٨٦٦

فرع الإسكندرية : ميدان محمد علي ٢ ت. ٢٣٥٨٨

توكيل السودان : سودان بوكشوب بالخرطوم ت. ٢٠٨٩

توكيل بيروت : بناية العسيلي - السور ت. ٩٢ عسيلي

توكيل بغداد : مكتبة المثنى ببغداد ت. ٣٥٨٨

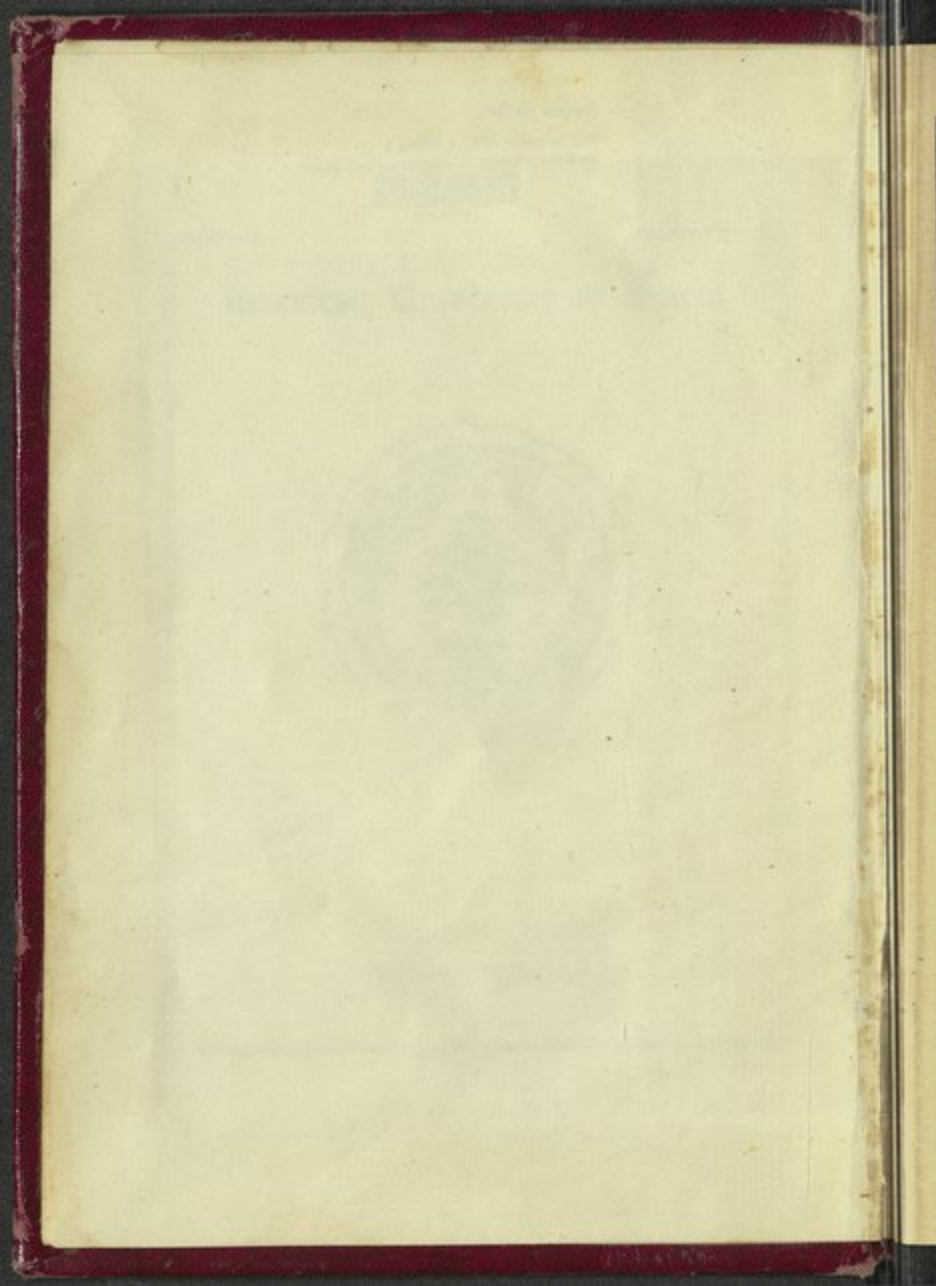
توكيل الجزائر : نهج شارتر ٣٧ ت. ٣٩٨-٩٩

اطلب الأعداد التي تنقصك حتى تستكمل مجموعتك
في سلسلة اقرأ .

ثمان الكتاب ٥ قروش



تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من ساحة الصحف والمكتبات



892.78
Ha438miA
C.1